العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

ليبيا من خلال رحلة ابن الطيّب الشرقي الصّميلي الفاسي

1728 ـ 1727 = 1140 ـ 1139

أ. د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قبل نحو من ثلاثين سنة نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي كتاباً من تأليفي يحمل عنوان «ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي» (1143=1731)، واليوم وبحكم الآصرة التي تربطني بليبيا، أقدم لزملائي الباحثين في ليبيا انطباعاتِ رحالةٍ مغربي من نمط آخر زار البلاد **قبل الوزير الإسحاقي**... وكان هذا بدافع أن أقوم بمقارنة بين الرحّالتين، لا سيما ولا يفرق بين زيارتيهما أكثر من أربع سنوات، ثم إنني رغبت في أن أعرف عن الفرق بين اهتمام وزيرٍ كان يقوم بمهمةٍ رسميةٍ محددة معينة، حيث عهد إليه بأنْ يصحب ركباً هاماً يضم في صدر ما يضم أميرةً عالمة جليلة حكم زوجها السلطان المولى إسماعيل بلاد المغرب أكثر من خمسة عقود، وكانت له علاقة مع دول أوروبا وآسيا... سيدة

جليلة كانت أمّاً للسلطان عبد الله بن إسماعيل الذي نعلم كذلك، عن صلاته الوثيقة بديار المشرق، وعن عمله من أجل أن يلتحق المغرب بركب الأمم التي ظهرت في الأفق الدولي وخاصة الإمبراطورية العثمانية... سيدة جليلة كانت جدةً للأمير المستنير الذي صحبها ـ وهو صغير السن ـ في زيارتها التاريخية لليبيا ولمصر والحجاز، وأصبح فيما بعد ملكاً للمغرب (محمد الثالث) الذي كان له علاقة متينة جداً مع العثمانيين ومع الإيالات التابعة لهم... ومع سائر دول أوروبا، وكان أول عاهلٍ عربيٍ اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية، وأول من تراسل مع رئيسها الأول جورج واشنطن.

لقد قمت بتتبع خطوات تلك **الأميرة** المغربية بمن صحبها من رجال الفكر والسياسة... قمت بذلك في إطار التزام أخذته على نفسي بأن أترك أثراً من الآثار يسجل مروري بتلك الديار سفيراً لبلادي.

كان ذلك شأني في العراق عندما أصدرتُ موسوعتي عن التاريخ الدولي للمغرب.. كان ذلك شأني في إيران عندما أَلَّفت كتابي عن إيران بعيون ابن بطوطة...

واليوم أشعر ـ كما أشرت ـ بحنينٍ يعود بي إلى تذكر الأراضي الليبية أرض التاريخ، لأرافق فيها عالماً جليلاً، عند مروره بها إلى البقاع المقدسة ذهاباً وإياباً.

هذا العالم الجليل ترك لنا عشرات المؤلفات والرسائل والمقالات، وكان فيها رحلته الوحيدة الفريده، تركها ليس في مكتبةٍ عربيةٍ أو إسلامية. ولكن في مكتبة غربية بألمانيا، وبالذات في لا يبسيك LEIPZIC التي زرتُها في غشت سنة **2002** مغتنماً فرصة وجودي هناك للمشاركة في **المؤتمر الثامن** لتنميط **الاسماء الجغرافية** المنبثق عن هيئة الأمم المتحدة.

العالم الجليل صاحب الرحلة لم يكن نكرةً من النكرات ـ كما أشرت ـ ولكنه عالم من أعلام الثقافة في عالمنا العربي الإسلامي، هو أبو عبد الله بن

الطيب الشرقي الصميلي الفاسي الذي ولد بمدينة فاس عام 1110=1698، وحج بيت الله أول مرة بتاريخ 1139 هـ =1727م وعاد إلى بلاده في السنة الموالية، وتصدَّى للدرس، وانتفع به خلق كثير، خلال إقامته بالبلاد إلى أن اختار العودة عام 1143 إلى تلك الديار حيث أدركه أجله بالمدينة المنورة عام 1170.

تخرج على يديه عدد من العلماء منهم من عرفنا ومنهم من غابت عنا أَسماؤهم، لكن يجب علينا أن نقول في هذا التقديم، إن الشيخ **مرتضى الزبيدي** صاحب تاج العروس لم يتردد في الاعتراف بأن **ابن الطيب الشركي الفاسي** كان عمدته في اللغة العربية...

ولابن الطيب عدد كبير من المؤلفات ـ كما أشرنا ـ تساعدنا على الاقتراب من مفاتيحه ومن شخصيته...

الرحلة التي نتقدم بها اليوم إلى زملائنا فريدة «**ثمينة**» جاء تفردها من أنها فعلاً النسخة الوحيدة في العالم وهي التي توجد صورة منها بين أيدينا، ثمينة لأنها من جهة أخرى تحتوي على معلومات متنوعة الفائدة، وخاصة في التاريخ القديم والحديث للمنطقة. المهم أن نشيد هنا **بدور الاستشراق** في خدمة هذه الرحلة، نعتبر ذلك من باب الإنصاف الذي يجب علينا ان نقوم به، لا سيما وقد كنا دوماً نعترف **لأهل السبق بافضالهم**، وذلك مبدأ للباحثين الشرفاء. ونذكر في صدر الفهارس المهتمة بالحديث عن ابن الطيب في لايبسيك Leipzic بألمانيا هو فهرس K. Vollers تحت رقم 746.

ونذكر هنا أن المخطوطة الموجودة بألمانيا أشير إليها من لدن عددٍ من أهل الاستشراق نذكر منهم المتشرق الألماني كوستاف فلوجل Glugel (ت 1870) الذي كتب تلخصياً لها في مجلة (Z.D.M.G)، 1864 XV III في أكثر من خمس وأربعين صفحة، عبارة عن تلخيص **لمحتوياتها** مع تقديم ترجمةٍ قصيرة لصاحبها، وذكر بعضاً من مؤلفاته الأخرى[1]...

---

(1) Zwei Reisewerke der Refaîja auf der Universitits-bibliothek zu Leisig P: 28-569.
نشكر بهذه المناسبة مساعدة السيدة أمل ملين.

وقد اطلعت عليها المستشرقة الإيطالية الدكتورة فيتشا فاكليري L. Feccia Vaglieri فكتبت حولها مقالاً آخر بمجلة Rivista Della Tripolitanaia، بعنوان رحلة حاج عبر ليبيا في القرن الثامن عشر، (سنة أولى، روما، نوفمبر ـ ديسمبر عام 1924 ص 133 ـ 141): Viaggio di un Pellegrino attraverso la libia nel Secolo XVIII..

وقد اهتمت فيتشا في المقال، خاصة، بتصحيح بعض أخطاء فلوجل: فيما كتبه عن الموضوع..

وقد عقب المستشرق الإيطالي المعروف كارلو ألفونصو نالليو CARLO ALFONSO NALLINO (ت 1938) على المقالة الأخيرة بمقالةٍ أخرى في المجلة نفسها (Rivista) سنة أولى، روما، نوفمبر، 1925، بعنوان: حول رحلة حاج عبر ليبيا في القرن الثامن عشر ص 375 ـ 384.

وقد كان يهمني حول موضوعنا هؤلاء الثلاثة مع العلم أن هناك مستشرقاً ألمانيا آخر تحدث عن ابن الطيب وهو كارل بروكلمان (ت 1956)...

وقد اطلع الأستاذ الراحل محمد الفاسي على الرحلة بألمانيا عام 1934، حيث وقفتُ على خطّه، رحمه الله، بمكتبة لايبسيك يوم الخميس 29/ 9/ 2002 على ما أشرت آنفاً...

ولقد فهمنا عن اهتمام المستشرق الألماني (فلوجل) بموضوع المخطوطات عامة وخاصة منها التي تتناول الشأن المغربي، وعرفنا إلى هذا أن من حق المستشرقة الإيطالية فيتشا... وزميلها نالليو باعتبارهما ينتسبان إلى إيطاليا التي كان لها في الأرض الليبية حضورٌ كما لا يخفى، علاوة على **الثروة الأركيولوجية الهائلة** التي تزخر بها الرحلة فيما يتصل بأصداء الوجود اليوناني وبالآثار الرومانية الثمينة والتي كانت متناثرةً هنا وهناك على مقربة من السواحل الليبية، والتي تدخل طبعاً ضمن نشاط المهتمين بموضوع «افريكا رومانا».

فهمت كل هذا، لكني لم أقبل أن تبقى الرحلة قابعة في تلك المدينة

الهادئة من ألمانيا تنتظر الزوار بين عقود وعقود من الزمن[2]...

وحتى نقوم بمساعدة الباحثين على **الاقتراب** من تلك الرحلة الهامة، نقوم اليوم بشبه تقديم لها وخاصة فيما يتصل بليبيا...

ونحن هنا لا نقدم **رحالةً سائحاً** أو عابراً عادياً، ولكننا ـ كما أسلفنا ـ نقدم عالماً لغوياً كبيراً عميقاً، عرفنا أثره على **كتاب القاموس**... ونقدم عالماً جغرافياً لا يتردد في استخدام **زاده المعرفي** عندما يجد نفسه أمام مسمى جغرافي، فهو يحرص على التوضيح بكل ما يملكه من أدوات، وقد بدا واضحاً من تتبع فوائده أن الرحالة كان يهتم بالدرجة الأولى، أثناء تنقلاته، بما يتصل بأحوال البلاد من حيث الأمن الاجتماعي والأمن الغذائي لا سيما وهو يقطع **مفازات بعيدة** المدى... ومن هنا اهتم **بالقِرْبة** (بكسر القاف) وما أدرك ما القربة في قاموس الرحالة الذي ينشد الماء في صحراء الأمس!! القِرْبَة التي تعني حافظة الكنز...! حافظة المهج والأرواح، حافظة الأمن! حافظة النظام، وعندما نَذكرُ (القِرَبة) لا بد أن نشير إلى ما سماه ابن بطوطة **بالحَوْض** (ويجمع على أحواض)!.

هذا المصطلح يعني شيئاً في نفس أهمية القِرْبة، إنه يعني (صهريجا) من جلود يُخيط بعضها إلى بعض حتى تُكِوّن حوضاً نستطيع معه التوسل لتوفيرالماء للإبل ذات العنُق الطويل! ولمختلف الحيوانات التي لا تستطيع **الوصول إلى القارورة والقِرْبة!** هذا الحوض إلى جانب **القربة** كان **حاضراً** في ذاكرة ابن الطيب الذي ـ كما قلنا ـ لم يمل أبداً من إعادة ذكر الآبار والمواجل والغدران... إنه علمَّنا، من خلال الرحلة، كيف نتعامل ـ في أسفارنا ـ مع الماء كمادةٍ حيويةٍ للبقاء... لنقرأ رحلته ولْنَعِدْ قراءتها مرات ومرات. وسنشارك رحالتنا ابن الطيب في مشاعره الحزينةِ عندما يتذكر بين فترة وأخرى ما حل برحلته... من سطوٍ وعدوان... **فلقد سطا عليها أحد السراق**... وكاد ابن الطيب أن يجنَّ

---

(2) من حسن حظنا أن الدكتور العميد عبد العلي الودغيري زف إلينا بشرى عزمه على نشر الرحلة، ولم يكن غيره جديراً بذلك لا سيما وهو مهتم أصلاً بابن الطيب الشرقي.

د. عبد العلي الودغيري: التعريف بابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، الرباط، طبعة أولى 1410=1990. ص23/ 161.

وهو يتذكر ما كان سجله من معلوماتٍ وأخبارِ أشعار. . .

ذكَّرني جيداً بصاحبنا ابن بطوطة الذي نسي ما استولى عليه القراصنة من خيراته، ابتداء من جبَّته التاريخية التي كان يباهي بها المشايخ، ومروراً بماله الذي جمعه طَول حياته، وبالمجواهرت والأحجار الكريمة التي كان يحصل عليها من مختلف الجهات، كلُّ ذلك نسّيه ابن بطوطة، ولم يبق في ذاكرته إلا **المذكرات**التي سلبوها منه والتي كانت تتضمن معلوماتٍ ثمينة بقيت محلَّ حسرةٍ وأسى لدى رحالتنا. . .

حصل مثل هذا **لابن الطيب** الذي وجد نفسه أمام أصدقائه وهو يحكي لهم عن الرحلة، أخذوا يلحون عليه في أن يتذكر! في أن يستحضر. . . حيث وجدناه يتذكر ويستحضر. . . ما نقرأه اليوم ونقدمه إلى المهتمين وبخاصةٍ أبناء ليبيا التي ظهرت من خلال مذكرات ابن الطيب. على أنها بالفعل أرض **عظيمة بآثارها التاريخية الضاربة في القدم، برجالها الأكفاء الذين كانوا يسهمون في النضال، ويعملون على إثراء الحديث، وعظيمة بثرواتها وبمعادنها. وخبرائها وخيارها كذلك**. . .

لقد أقنعتْني رحلة ابن الطيب أن **الفكر الجغرافي** في بلادنا على خير، وأن هناك أمانة علمية في نقل **الفكر الجغرافي** الذي عرف قبل الإسلام وازدهر بانتشار العرب. . .ومن هنا وجدنا مرويات **البكري** تذكر في صلب الرحلة، على نحو ما وجدنا بعض المعلومات التي يتعرض أصحابها، أحياناً، **لانتقادات** ابن الطيب الذي نعت بعض محتوى رحلة أبي سالم، بأنه محتوى غير سالم!!

ولقد كان فيما لفت نظرنا في هذه الرحلة الرفيعة الأسلوب بالرغم مما حل بها من عطب، كان من أبرز ما لفت نظرنا فيها أنها كانت سجل أحداث يوماً عن يوم، وبالتاريخ والاسم، وبدون ملل أو كسل.

وإن من أهم ما كان يلفت النظر في **الرحلة الشرقية** أنها اهتمت كذلك ـ وهي في ليبيا ـ **بالتاريخ الدولي للبلاد**، أي علاقات ليبيا بالعثمانيين وصلة الحاكم في مصر بالحاكم بن ابليس، وتحدثت عن ظاهرة الاحتكاكات التي كانت بين **العرب والأتراك**. ولم يتردد الشركي في التحامل على من بأيديهم

مقاليد الأمور وأنهم ينالون ممن هو أضعف منهم. . . ! ولقد كانت أقوى عقوبةٍ توجه للأعراب أن يجردوا من إبلهم، من وسائل تحركهم، . . عقوبة لا يعرف نكالّها إلا من يصبح بين عشيةٍ وضحاها عديم الحركة مقطوع الأوصال. . . كان ابن الطيب يفضح هذه التصرفات!

إلا أنه عكس رحلة ابن بطوطة. . . ورحلة الوزير الإسحاقي فإن «المرأة» في رحلة الشركي كانت غائبةٍ نهائياً. . ! لا أدري هل كان الركب رجالياً مائة بالمائة، أو إنه كان هناك تقليد يُحرّم الحديث عن النساء في مثل هذه الظروف الشاقة الصعبة التي ترجع فيها الكلمة بدءاً ونهاية إلى شيخ الركب أو أمير الركب الذي كان يتمتع بقسطٍ وافر من السلطة والكلمة.

والحديث عن شيخ الركب جدير بالمتابعة لأنه ظاهرة حضارية رفيعة تنم عن روح التعاون منذ أن دشنها الشيخ أبو محمد صالح في مدينة آسفي في العصر الوسيط. . .

وإن الجانب الذي كان يُبّرز فيه الشركي هو العلوم التي كانت رائجة على عهده. . . هذا الجانب هو علم النوازل و الفتاوي، ، قد كانت تطرح عليهم طائفةً من الأسئلة من كل نوع، وكان يشير إلى أنه أحياناً يأتي بنص الجواب، وأحياناً يعتذر بسرقة النصوص من الرحلة. . .

ومن خلال الحديث عن هذا الجانب كنا نعرف عن بعض مؤلفات الرجل وعن كتبه التي كانت تصحبه حتى «يحَينّها» كما يقولون اليوم. لكن العنصر الذي بهرني هو وفرة المسميات الجغرافية التي أتى بها مما لم أجد بعضه في رحلة العياشي، وكذا رحلة الإسحاقي التي يتأكد أنها كانت كما عرفنا رحلةً رسمية لا تهدف إلى شيء بقدر ما تهدف إلى الوصول إلى المسجد الحرام وعرفات. . . ومما لم أجدّه ـ بطبيعة الحال عند ابن بطوطة الذي يتأكد لي أنه كان ـ عند مروره بطرابلس ـ منهمكاً في احتفاله الكبير بزواجه، ولو أنه كان أول رحالة ذكر مدينة (غات). . . وأهميتها في صلة المغرب بالمشرق. . .

رحلة ابن الطيب نظراً لكل هذا بحاجة إلى بحث جامعي أكاديمي ـ كما أشرنا ـ متبوع بخارطة أدق وأكمل مما قلنا به بالنسبة لرحلة الإسحاقي، محتاجةٍ

إلى مسح جديد وإلى سعة خاطر، ليقف الباحث على المواقع التي زارها واحداً واحداً بعد الآخر. ويعرف ماذا بقي من هذا وذاك، ويوظف الرحلة لعملٍ سياحي على صعيد دولي. فإنَّ «لوبيا» كانت بمثابة الأم بالنسبة لتاريخنا نحن المغاربيين الذين أمسَى بَعضُهم أحد فراعنة مصر: شِيشونك الأول الليبي الذي صاهر ملك مصر وأصبح فرعون الأسرة الثانية والعشرين في القرن التاسع قبل الميلاد الذي نسمع اليوم عن صداه في معابد الكَرْنك. . . ! تاريخ المنطقة محتاج إلى رحلة ابن الطيب وإلى ما ورد في رحلة ابن الطيب من إشاراتٍ قويةٍ إلى مركز البلاد واهتمام السابقين بهم وعنايتهم بتأثيث سواحلها. . . كل هذا يجعل من واجبنا ـ نحن اللاحقين ـ أن نشيد بكل عمل قام به السابقون عبر الأحقاب الماضية. .

لقد حرصت على مصاحبة ابن الطيب في العشر الأواخر من شعبان 1139= (أبريل 1727) عندما قال في (ورقة 82 من المخطوط): «. . . وسرنا فحصلنا الزوارات الغربية عند ارتفاع النهار، ونزلنا ريثما سقينا من آبارها العذبة الصافية الفائضة ولا فيضان الأنهار، واشترينا من أهلها الزبيب والزيت والتين وقضينا منهم بعض المصالح، وزرنا مَنْ أمكنت زيارته من صالحيها مثل سيدي سعد بن صالح، وسرنا حتى أتينا الزوارات الشرقية ظهراً فصليناه بها. . .

إلى مليتة إلى زواغة، إلى الزاوية إلى قرقارش. . . ودخلنا طرابلس الظريفة، ذات الفواكه المَنوَّعة والظلال الوريفة، صبيحة يوم الخميس للخامس والعشرين من شعبان، فألفيناها أزهى من دمشق وشعبان (اسم مكان، انظر معجم البلدان)، وجسنا خلال ديارها، وأشرفنا من شرفاتها على تيارها. . .

ويستمر الرجل في الوصف بسجعه المفيد غير المتكلف. . . فيذكر أن طرابلس كانت مجمع الركبان. . قد يجتمع فيها الثلاثة والأربعة من الأركاب الواردة من كل حدب وصوب، لتقصد المسجد الحرام. . . ولا يخفى ما في هذه الملتقيات من فائدةٍ على أمر المعاش. . .

ويلاحظ الشركي أن الأرحية هنا بطرابلس كانت تدور بواسطة الإبل، وليس بالماء كما اعتاد أن يرى ذلك في فاس حيث المياه متوافرة. . .

وصلى الجمعة في جامع الدروج قبل أن يصلي الجمعة الثانية في جامع

الترك... وهو في كل يقارن ويفارق، ويذكر في صدر من لقيهم، من غير الخطباء الشيخ أبا محمد عبد الباقر الحنفي ويذكر شخصيةً بقيت عالقة بفكره حتى بعد عودته من أداء الفريضة، أبا عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الأصرم القروي (نسبة إلى القيروان) يتحدث عن هذا على أنه موجود هنا بطرابلس في فترةٍ عابرة ولو أنه من سكان درْنة على ما سنعرفه من الشركي عند العودة من أداء المناسك... ولعل لاسم الأصرم صلة بالصحابي الجليل أسود بن الصرم[3]...

إن **الأصرم** هذا بحاجة ماسة إلى نفض الغبار عنه لا سيما وقد غطى على ذكره أصرم آخر آتى بعده... لقد تبادل قول الأشْعار مع صاحبنا ابن الطيب.

لقد أثنى الشركي كثيراً على معارف ابن الأصرم «وعلى نورانية بدره وإشراقية ذكائه وعلو همته» وكنت أثبت منها ما عَدَت عليه يد الإضاعة. ويذكر من هذه التقاييد بيتين علقا بالأسماع:

أفٌ لِـذي أدب يـرضـى بـمـنـقـصـةٍ ولـم يـكـن مـثـل بـاز فـوق قـفـاز!
يـومـاً بـمـصـرٍ، ويـومـاً بـالـشـآم،ويـو مـاً بـالـعـراقِ، وأيـامـاً بـشـيـرازِ!!

وهذا العالم ابن الأصرم هو الذي سأله الشركّي عن ضبط اسم طرابلس... لما عرف عن اهتمامه بالمسميات الجغرافية على ما سنقرأه مفصلاً عند مروره بطرابلس وعلى مقربةٍ من درنة...

ثانياً، وقد تعرف على الشيخ أبي عبد الله محمد **المكنّي** المشهور بالفتوى، على ما سنقرأه في النص الكامل... كما تعرَّف على الشيخ أبي عبد الله بن مقيل، وأبي محمد عبد العزيز مروان نادرة الأوان، والفقيه الشيخ أبي العباس أحمد بن الصغير... وأبي العباس أحمد كست؟ الخطيب المبدع في جامع الترك...

---

(3) ابن الدنيا: كتاب الهمث ص179.

غيران في قبلته انحرافا للمغرب على ما كان فيه من اوصاف المغرب ومنها
بنيانه في الزاويه فتلقانا اهلها بالترحيب وكانوا البيوتنا نزلنا فيه
وظعنا منها يوم الاربعا فظللنا نسير في ظلال الزيتون والكروم
والتين حتى وصلنا قرابس قبل الزوال واخذنا في النزول
فيه وتركنا الذهاب منه والزوال لنلحق الراحة بالراحة ويكون
دخولنا لطرابلس صباحا بعد الاستراحة وورد لملاقاتنا جماعة
من الحجاج المغربين وغيرهم من اهل طرابلس المقربين

دخلنا طرابلس الظريفة ذات الفواكه المنوعة والظلال الوريفة
صبيحة يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان فالفيناها ارقى
من دمشق وشعبان وجسناخلال ديارها واشرفنا من شرفاتها
على نيارها فاذا هي مدينة صغيرة الساحة خصبة الناحة كثيرة
الفواكه ليس لها في بهجتها ولطافتها مشابه ولا مشاكه ولها بابان
باب الى البر وباب الى البحر ولدن البحر محيط بكثير من جهاتها
والحصار الذي فيه الامير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه
وبين البحر وقد شاهدت لها بركة عظيمة في امر معاشهم وقت الحجاج
فقد يجتمع فيها الركبان والثلاثة والاربعة ويكون عسكر البحر
خارجا في البحر بعض الاحيان ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على
ما كان في كل يوم بل ربما نقص مع انه معروف بالغلا بالنسبة
لوريف النيل والمغرب غيران في الطحن بها غاية المشقة اذا جاؤهم
انما تدور بالبغل فتطحن في الدوران وفيها من المساجد الانيقة
الجسيمة المشتملة على المباني الفائقة الوسيمة ما في مرآة البديع نزهة
للناظر بين المناظر ولا سيما المسجد المعروف بجامع الترك فانه
ما ترك شيأ من المحاسن البديعة الا حاز عجيبه وبديعه وزين فيها
من المشاهد المزاره ما ذا يقال مولانا ان من بالقبول على من قصده
او زاره ويحط بركته عاشه او زاره واصبحت الجمعة فتوجهنا
لصلاتها واغتنام صلاتها ودرجنا مع من درج لوقتها في جامع

الدرج

الورقة 83 من المخطوطة ابن الطيب الشرقي الصميلي الفاسي الموجودة في مكتبة لايبسيك بألمانيا رقم 746

وهكذا، أخذ الطريق مع إطلالة رمضان... يوم السبت رابع رمضان مسترشداً بما ورد عند أبي سالم العياشي مع ملاحظة أنه قد يعْترض عليه، على ما سبقت الإشارة إليه:

ولستُ بإمَّعَةٍ في الرجالِ أسائِلُ هذا وذا ما الخَبَر؟!
يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ولو قيل: هاتُوا حققوا، لم يحققوا!!

ومروراً على **قصر البنات**... وهو بقايا قصر من آثار الروم، قصر، قصر عليه الحسن والإحسان.

قال: وفي أثناء هذه المراحل **قطعنا الجبل** الذي هو منتهى الجبال في تلك البلاد وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولاً وعرضاً وحطباً وماءً، وقرى متصلة، وعمراناً متراكباً وقبائل وافرة غالبها بربر، **وأوله من البحر المحيط، أطراف السوس** الأقصى، ثم يمتد كذلك بعد أن يمر قرب **مراكش** إلى آخر النص الذي ينقل فيه عن **تقويم البلدان**[4] حول جبل دَرَن مستأنساً بالشيخ أبي سالم... وهو يشير بهذا إلى جبال الأطلسي الكبير التي تمتد من أكونستان إلى قصر حسان... أكونستان.

كلام مليء بالمعلومات عن جبال دَرَنَ الذي تقع في سفحه المدينة العظيمة التي يقال لها مدنية **لبدة** التي خلت في العصور الأوائل ويقيت آثارها ورسومها... وفيها مياه عظيمة **وهياكل جسيمة** وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت... وترى أعمدة الرخام في وسط البحر قد أحاط بها الماء...

ومن مدينة لبدة يُنقل كثير من **أعمدة الرخام** إلى طرابلس وإلى مصر وغيرهما من البلدان... اهتمام كبير بتاريخ المدينة... وهو لا ينسى أن ينقل عن **رحلة العبدري**... الذي ذكر أنه وجدها خالية...

وهنا يأتي بقصةٍ غريبةٍ مثيرة رواها أبو سالم العياشي، ووجدنا لها أثراً عند حديثنا عن (العلاقات المغربية البرتغالية)[5]... تتصل **بالدواء الناجع للطاعون**،

---

(4) أبو الفداء صاحب حماة ت732: تقويم البلدان، صنعة باريز 1840، ص135.

(5) د. التازي: ندوة آسفي الدولية أكتوبر 2004.

وأنه ليس إلا زيت الزيتون. . . الأمر الذي كان سبباً في غرس تلك البلاد كلها بشجره، من مسراته إلى سوسة وتونس. . .

ويتحدث عن نخل ساحل حامد فيذكر أنه يحتاج إلى إصلاح، فهو رديء لا يدخر تمرهُ، ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى **كقطع الجلد**، لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم، لا يُفرق بينه وبين لحاء الشجر!

وبما نعلمه عن ابن الطيب الشرقي فهو متعلق بالبحث عن أضرحة الصالحين الواصلين، وكذلك نراه يتذكر هنا ضريح الشيخ سيدي مفتاح الذي يوجد على تلٍ مرتفع على ساحل البحر. .

وهو لم يهمل الحديث عن آثار **سانية** هنا، فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها (عين كعام) التي رسمها بالنون عوض الميم[6].

قال: إن فيها صنعةً وأبنيةً غريبةً بحجارة منحوته عظيمة، تحار فيها العقول، كل حجر فيه أربع أذرع فأكثر، منقورة من وسطها نقراً متقناً.

ومَن رأى ذلك، استغرب أن تكون قدرة البشر واصلةً إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهراً أفنى أولئك الأقوام جديرٌ بأن يستأصل بقية الأنام! وينقلهم من حالةٍ إلى حالة، ومن دابر إلى دبر!

ومن هنا إلى (زليتن) حيث ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام الأسمر من أهل المائة العاشرة الذي عرف به الشرقي نقلاً عن أبي سالم. . . له أخبار في قهر الجبابرة **وتحرير الأسرى** من أيدي الفرنج. . . ينتسب إلى بلدة الفوائر: أمه مغربية، وكلك من رام أهل هذه البلدة بسوء قصمه الله!

ويذكرون أنه كان للشيخ الأسمر فرس لها حسٌّ يبحث عما في باطن الأرض من قوم صالحين! فيقولون «هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ»!! قال

---

(6) الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، منشورات دار مكتبة النور، طرابلس ليبيا، طبعة أولى 1388=1968، ص235-236.

ابن الطيب معلقاً على هذا: إن السر في الفارس لا في الفرس[7]!!

ويصل ابن الطيب إلى (مسراته)... ويتوجه بطبيعة الحال لزيارة ضريح الشيخ زروق البرنسي الفاسي **حقق الله نسبتنا إليه**، يقول الشرقي.

ويروى أنه شاع عند الحجاج أن بعضهم يودع هنا ما له من مالٍ حتى يعود... فلا يضيع له شيء... وبعضهم يقصده للتبرك به عند **ركوب البحار**...

وهنا يذكر شعراً كان خاطب به هذا الشيخ الذي طبقت شهرته الآفاق:

أأحمَدُ في معناك قد ظلتَ، أحمدُ ومثلُكَ من يُسدي الندى حين يُحْمَدُ
ولا سيما والقول منك مصرَّحٌ بذلك في بيتٍ من الشعر ينشد
إذا كنتَ في ضيقٍ وَغم وكربةٍ فناد: أيا زرُوق، يأتيك أحمد[8]

وهي طويلة أتى فيها بما تذكره منها، بعد سطو اللصوص على مذكراته!

وها اجتمع بعددٍ من طلبة البلاد، وسألوه عن مسائل علمية تدل على ضعف العلم في تلك الأرض، وانقراضه، وفشو الجهل في ذلك العرض واعتراضه.

ومن هنا استعد الناس لقطع مفازةٍ نحو من أربعة أيام: مفازة **برقة** التي تبتدئ من زروق إلى مصر...

وهنا يقف ابن الطيب مع تحديد موقع **برقة** عند أعراب تلك البلاد مستأنساً بما يرويه الشيخ أبو سالم... ذاكراً الفرق بين **برقة** البيضاء **وبرقة** الحمراء... مردداً اسم التميمي والجبل الأخضر والعقبة الكبيرة: عقبة السلوم... وعلق على تقسيم العبدري بقوله: إنه اجار على اصطلاح وقته...

ويتصدى ابن الطيب الشرق ليدلي برأيه حول ما قاله العبدري من أن **برقة**

---

(7) المخطوط، ص89.

(8) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي صنفه وحققه وعلق عليه... د. عبد العلي الودغيري ـ البوكيلي للطباعة والنشر رقم الإيداع القانوني 1195/ 1996 ص35.

مدينة قديمة من بناء الروم، وكان اسمها انطابلس. قال البكري: ومعناها بلغتهم خمس مدن.. ومعنى طرابلس ثلاث مدن، وليس هنا الآن مدينةٌ تسمى يرفه[9]...

وبعد أن يعلق ابن الطيب على مقالة العبدري يتوسل إلى الله أن يعينه على قطع فيافي برقة التي نعرف أن اجتيازها كان بمثابة الوصول إلى القَمَر اليوم[10]!

ولم يكن من اهتمام ـ كما قلنا ـ عند ابن الطيب إلا بهاجس الماء... وملء القِرَب، والمقارنة بين رأي الشيخ أبي سالم حول هذا البئر أو ذاك! والطريف في حديثه أنه لا ينسى أبداً **المطايا** وهو يتحدث عن الماء!!

ويمرُّون على موقع «الهائشة» التي هي كاسمها هايشة! أسقطت في غدرانها كم من راكب!!

ـ على جوانبها بناء قصور خالية ـ يقول أبو سالم: وفيها نخيل متفرق **كأنه رؤوس الشياطين**، لا ترى أوحشّ منه، وماؤها يضرب به المثل في القبح، وليس في برقة أقبح منه، ومروا بقبر الشيخ المشهور بالصلاح سيدي بومذيون من **أولاد الوافي**... إلى أن وصلوا مطرد[11]: بئر كثير المياه، خصب الساحة للأنعام والشياه..

قال: وألفينا بقربه محلةً عظيمةً من الأتراك، يقول رائيها لصاحبه: تراك! تراك! قيل لنا: إنَّ المحَّلة جاءت **لنهب بعض** قبائل الأعراب دون إعراب، فعلمنا أن الجور عام في العالمين!!

وأعراب تلك البلاد يعرفون **بالفرجان**، وهم أصحاب سمت حسن وأخلاق أزهى من اللؤلؤ والمرجان...!

---

(9) رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي. 689=1290. تقديم وتحقيق محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس 1388=1968. ص87.

(10) ضرب المغاربة المثل لمن استطاع أن يمر بهذه الفيافي وأنه أمسى سيداً قديراً لا يستطيع أحد أن ينال منه، يقولون: (حج وجاز على برقه وما بقيت فيه مرقة)!!

(11) الزاوي: المعجم ص320.

ثم دخلوا بلاد سرت... وهي ثلاثة قصور تخزن فيها العرب ميرتها. وكانت قبل هذه السنة خالية، وهذه البلاد من أخصب البلاد، ذات مزارع كثيرة، وأعرابها أهل رفاهية إلا ان **الجور أجلاهم** عن بلادهم وشتت شملهم، ينقل ابن الطيب عن أبي سالم العياشي...

ويبقى ابن الطيب مشغول البال بشؤون «الاستقاء» في تلك الفيافي وبآبار قصر الذباب... عمق الآبار وملوحة الماء وبعد الشقة... فإلى معطن النَّعيم، الدال باسمه على غاية التنعيم، حيث استقاء الدواب وامتلاء القِرَب، الاستعداد إلى مفازةٍ أخرى أمامهم تتطلب خمسة أيام قال: وقد وصف أرباب الرّحْل (جمع رحلة) هذه المفازة بأنها ذاتُ رياحٍ هي أحرُّ من السموم، حيث قضوا الليل في بئر العُويجة... وحوْلَنا رجلُه من البحر داخله في البر، عادة الحجاج فيها اصطياد السمك بالقصب والأعواد...

وكانت تتراءى للركب عن يسار الذاهب مشرقاً آثار **قصور ضخام وأبنية** عظيمة مرصوفة بالحجارة المنحوتة والرخام بالغ في إتقان مبانيها، ودلت على عظم بانيها، وذلك كله خرب واندثر، ولم يبق منه سوى الأثر.

ثم يذكر ابنُ الطيب أن القافلةَ أتتْ سبخةً (**الكبريت**) حيث يقدم لنا معلومات **جد هامة عن معدن الكبريت** في آبارٍ وعيونٍ كالمرج يُجمع منها كالطِّين. ومن هناك يحمل إلى طرابلس، وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر في سنة أحْمال كثيرة لأن العرب يحملون، بالكراء، من مصر إلى طرابلس للحجاج، فإذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريتاً... والقِرَب والجلود مملوءة بذلك، ويتركونها إلى أن تتجمد لتتداوى **بها الإبل** الجربة... وكذلك جرب الآدمي...! فإذا أرادوا المداواة به حلوه في شيء من الماء وطلوا به الجرب[12].

ومن مقطع (الكبريت) إلى معطن (المنعم) المشتمل على أحساء كثيرة في

(12) ذكرتني هذه الوصفة أيام كنت في السجن على عهد الاستعمار الفرنسي بمناسبة الأحداث السياسية عام 1944، فقد تمارضت ذات يوم مدعياً أن بي جرباً.. فكان علاجي هذا!!

وسط كثبان من الرمل على ساحل البحر، وماؤه عذب فُرات لا سيما الآبار التي في حيز المشرق... كلما انحازت إلى الغرب ضعفت حلاوتها، قدرة الملك القدير المنفرد بالتدبير... ثم (المصانع) وهي غدران مصنوعة بين كثبان الرمل من غير صانع...

ثم قصدوا **الأجدابية**، التي كنت قمت بزيارتها شخصياً وأنا أقوم بمهمتي في ليبيا أواخر الستينات.

وهنا ينقل عن الشيخ أبي سالم العياشي معلوماتٍ عن هذه المدينة العتيقة التي يقال إنها المقصودة **بمدينة برقة** في الفقه... هنا في الأجدّابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر، وبنيان هائل بالحجر المنحوت، وهناك رسم مسجد قديم، ووجد في بعض حجارته تاريخ بنيانه منقوش، سنة **ثلاثماية**.

ويذكر ابن الطيب نقلاً عن أبي سالم ان شيخ هذا الأخير محمد بن مساهل أخبره عن بعض المشايخ أن الإمام **سحنوناً** كان مدرساً بهذا المسجد ثلاث سنين. كما يحدث عن سيدي يونس..

ويعود ابن الطيب مرةً أخرى إلى تحقيق المناط حول **برقة**... وهل هي مدينة **أجذابية** أو مدينة غيرها توجد بالجبل الأخضر في الجانب البحري...

وهنا نجد ابن الطيب يفتح النقاش حول الموضوع، قائلاً: وأستغرب هذا القول من جهات.. على ما نقف عليه في النص الكامل المتعلق بليبيا في الرحلة[13]...

ومما يوثق به ابن الطيب الشرقي كلامه عن الأجدابية انها مذكورة في **القاموس** ونحن نعلم سلفاً أن لابن الطيب الشرقي علاقةً بالقاموس، أفليس أنه مؤلف «**إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس**» الذي هو حاشية على الفاموس[14]؟

---

(13) الرحلة العياشية، ج1، ص104 ـ 105.

(14) محمد بن الطيب الشرقي الصميلي الفاسي: إضاءة الراموس، تحقيق عبد السلام الفاسي والدكتور التهامي الراجي الهاشمي. طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط. ج. أول وثاني. ص1403=1983.

الدكتور الودغيري: التعريف بابن الطيب الشرقي. مصدر سابق....

هذه المنقوشات عثر عليها أثناء الحفريات التي اجريت في مسجد اجدابية القديم المعروف بجامع سحنون،
(مصلحة الآثار برقة سجل الصور الشمسية تاريخ 29 ـ 10 ـ 1956

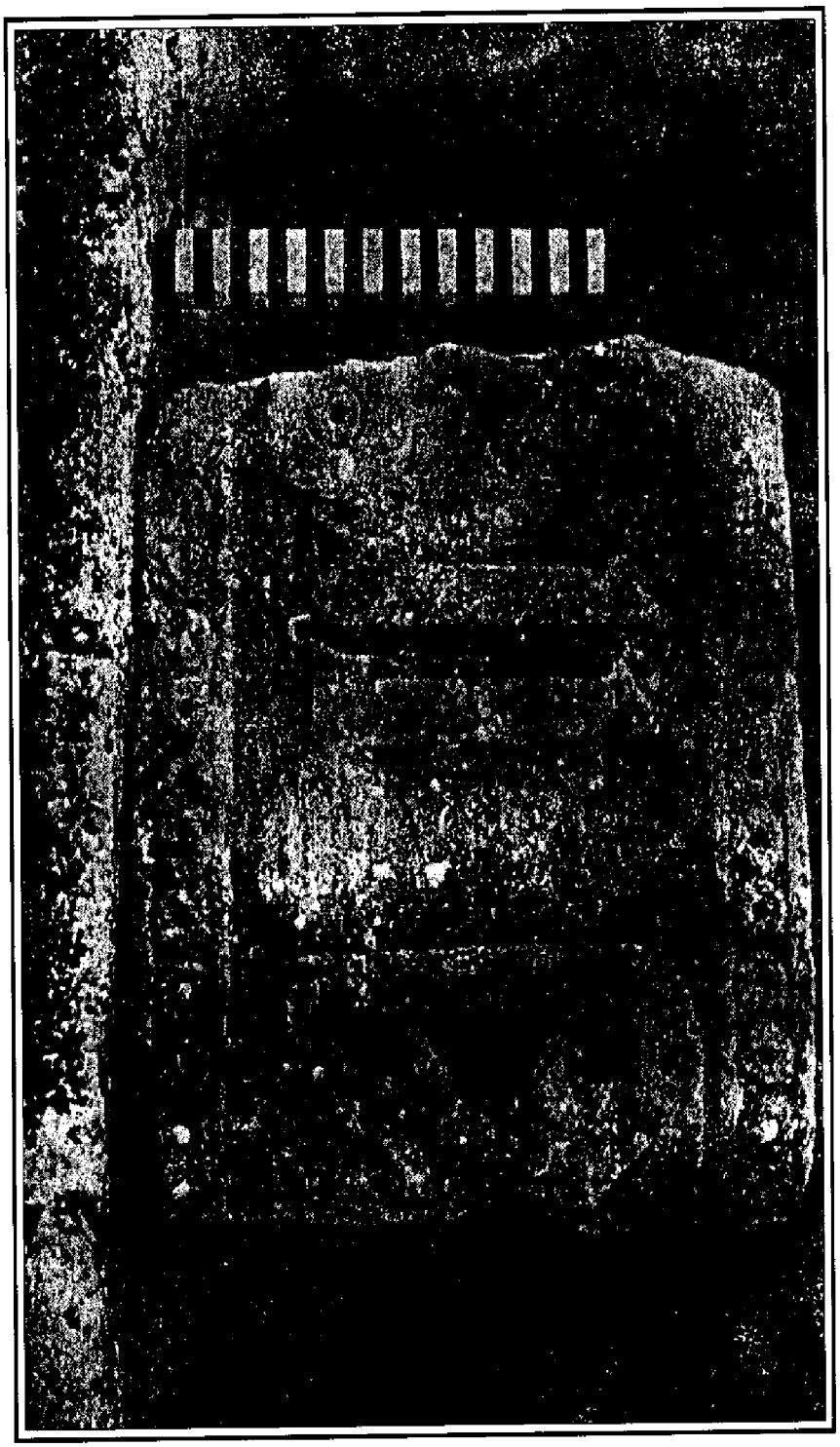

هذه المنقوشة عثر عليها أثناء الحفريات التي أجريت بالقلعة باجدابية، مصلحة الآثار برقة، سجل الصور الشمسية بتاريخ 29 ـ 8 ـ 1963

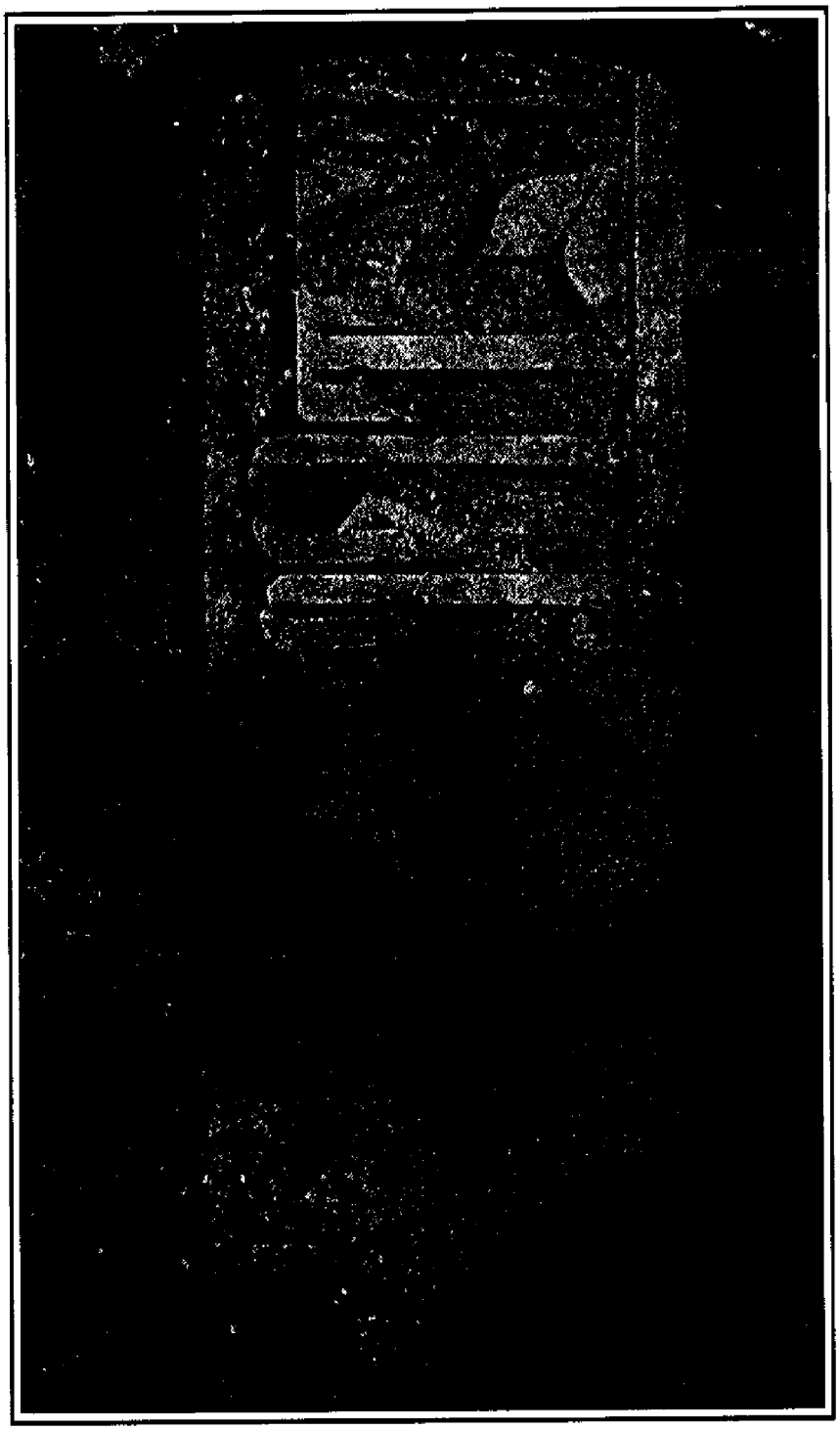

الصورة رقم 3995ف عثر عليها أيضاً باجدابية، ويعتقد أنها ترجع للقرن الرابع الهجري، من اطلال المسجد الذي بني من قبل الخليفة ابي القاسم بن أبي عبد الله، جامع سحنون، الصورة تحمل في الآثار رقم 3997ف

ولا يفوته أن يردد هنا أن بعض أهل هذه الجهات يشتكون من الغارات التي تشن عليهم من الأعراب والعمال... **أخمد الله نيران الظالمين وأذهب الجور عن العالمين!**

ثم إلى (سلوك) وهي معطن كالأجدابية ماؤه أَشدُّ عذوبة وغزارة، حيث اخذ الناس يستقون من كل بئر... قال: وهذا المورد آخر **بلاد برقة** الحقيقة وتسمى برقة الحمراء.

والعادة عند أهل بنغازي أنهم يتلقون الركب بأنواع الفواكه والخضر إلا أنه لم تصلهم أخبار الركب بسبب خلل وقع في ربط الاتصال...

ويعرف الرحالة بمدينة **ابن غازي** على أنها مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين (سلوك) مسافة يوم قال: وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس... وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر... وتحمل السفنُ منه أضعافاً مضاعفة إلى طرابلس وجربه... ويُحيل على أبي سالم في حكاية طرائف الجبل الأخضر.

ثم إلى مفازة (السروال) الموصوفة بشدة الأهوال، وهي مفازة سبعة أيام تحدث عنها معظم الرحالة.

ثم إلى (وادي سمالوس) وهو واد من أودية برقة ينزل من الجبل الأخضر وتصب فيه أودية كثيرة من أودية الجبل.

ويصل إلى محطة (المخيلي) الذي عرفنا بها الشيخ الزاوي في معجم البلدان الليبية، وقد أفادنا أن بقرب هذه المحطة يوجد قبر **الشيخ عمران** شيخ الركب المغربي الذي أدركه أجله هناك في رمضان 1073 [15]...

ثم **(التميمي)** وهو موقع واد على ساحل البحر، حيث ينعقد هناك **سوق عظيم**... وجاء أهل درنة وغيرهم للتسويق، وقامت هنالك الأسواق التي لا يرى الحجاج مثلها في جميع الفواكه والخضر وأنواع الألاء وضروب النعم...

---

(15) لا ننسى أن نتذكر هنا أن شيخ الركب عام 1141. عبد القادر عديل وهو في طريقه للحج.

وكانت لابن الطيب فرصة ليقدم لنا (درنة) التي سبق لي أن سعدت بزيارتها وأنا سفير لبلادي بالديار اللّيبية. . .

إنها تقع على ساحل البحر وبها مرسى وبينها وبين (التميمي) مسافة يوم ونصف من غربه. . .

وينقل لنا هنا فائدةً تاريخية عن مهاجري الأندلس، قال: إن (التميمي) كانت خالية منذ أزمان إلى أن عمَّرها بعض أهل الأندلس قرب السنة الأربعين والألف، ولم يزالوا بها إلى ان بَطِروا[16] فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس! . . .

ويقدم لنا فائدةً أخرى عن مرسى مدينة درنة. . . التي تنزل بها السفن الواردة من الإسكندرية، ومن طرابلس وكذلك من **بحر الروم** (البحر المتوسط) ولا سيما جزيرة كندية Candie[17] (إيطاليا)، فإن بينها وبين درنة، مسافةَ يوم في البحر وهي تقع في مقابلتها. . . ونحن نعلم **أن البحار ليست في** واقع الأمر أداة أنفصال ولكنها على العكس من ذلك وسائل اتصال.

ثم إلى (عين الغزالة)، تصب من سفح الجبل الأخضر في بحيرةٍ كبيرةٍ تحتها تتصل بالبحر ينبت فيها **القصب الفارسي** وبعض أنواع النبات المائي[18].

ويحكي ابن الطيب أنهم مروا ببيتٍ في الحجر الصلد طوله عشرون ذراعاً في مثلها، وبداخله بيت آخر، نحو نصفه، وفيه غرف صغار وكأنها مخازن وكلُّ ذلك منقور في الجدار الصلد نقْراً عجيباً مربعاً كهيئةٍ أحسن ما أنت رأءٍ، من البيوت، وله باب مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضاً. . . لقد أخذه العجب من هذا الترتيب المتقن الرائع الذي ذكره في الآية الكريمة (**وتنحتون من الجبال بيوتاً آمنين**).

ويتساءل عن أصل قول الحجاج إن هذا قصر فرعون؟

---

(16) الإشارة إلى الآية: وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها. . .

(17) كندية: عاصمة جزيرة كريت.

(18) الزاوي: معجم البلدان، ص234.

وعاد ليذكر أن العبدري أطال في وصف هذا البيت وأجاد، وأن الشيخ أبا سالم أومأ إليه. . .

ويتحدث ابن الطيب عن بيتٍ آخر قريب من الجبل يسميه الحجاج بالحمام، لم يذكره أحد من أرباب الرّحل، باستثناء العبدري الذي ذكر، وهو عائد من حجه، أنه بيتٌ يماثل الأول[19]. .

وأخذوا الطريق يوم الأربعاء التاسع والعشرين من رمضان حيث باتوا على غير ماء. . . إلى منهل (الدفنية) حيث وصلوها قبل الغروب. فانزاحت عنهم الكروب! منهل قرب البحر، مشتمل على أحساء كثيرة سهلة التناول قريبة المآخذ. . .

هنا وهلال العيد يهلّ على الناس، وردت عليهم طوائف من الأعراب بالسمن والغنم والإبل وجاؤهم بتمر (سِيوَة) التي يرسمها هكذا (سوى) حيث أخذ الناس كفايتهم بأرخص سعر.

ومن الطريف أن نجد ابن الطيب يخصص حيزاً من هذه المذكرات للحديث عن تمر سِوَى مقارنةً مع تمر سجلماسة.

قال: وتمر سِوَى من أحسن التمار لم نر تمراً يشبه تمر سجلماسة درعة من يوم خروجنا إلا هذا لوناً وطعماً، قال: وهذا ألطف منه وأبقى لأن عادتهم أنهم لا يحملونه إلا في قفافٍ. . . كل واحدة تزن قريباً من نصف قنطار، ويجعلون لها معالق، تعلق بها على أقتاب الإبل، فيحمل الجمل منها عشراً أو أكثر أو أقل على حسب صغرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها، وتلك صنعة عجيبة عندهم يبقى التمر بداخلها على حاله نظيفاً، ولا يحتاج مشتريه إلى غرارة. . . وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك! وكان قد وردت عليهم في هذا المنهل قوافل من الإبل بهذا التمر، وتنعم بشرائه المأمور وذو الأمر!!

وأصبحنا في الدار مهل شوال ريثما أصلحنا الهيئات والأحوال، وهنا

(19) رحلة العبدري: ص87. الرحلة العياشية.

يتحدث عن **إقامة سنة العيد** حيث طلب منه شيخ الركب[20] أن ينوي الصلاة والخطبة... وهنا وبعد أن يشير لموقف الفقهاء حول حكم الخطبة بالنسبة للمسافر... يخبرنا بأنه قام بإلقاء خطبةٍ حافلةٍ... ويتحسر مرة أخرى لكون نصها ضاع ضمن ما ضاع من الرحلة!

ويتحدث عن جو العيد بما احتفى به من أطعمةٍ مختلفة الألوان مما لا يجمعه إيوان، في مثل ذلك الأوان، ونعتقد أن لشيخ الركب يداً كبرى في جمع الحجاج بهذه المناسبة...

لقد قضوا ليلهم في (البطنان) من أراضي برقة الشرقية حيث ضريح سيدي عزيز من عرب سمالوس...

وفي يوم السبت ثاني شوال أتوا العَقبَة الكبيرة: عقبة مشرفة على البحر ذات حجارة عظيمة ترجل فيها الناس كلهم... وهذه العقبة هي عقبة السلوم كما سماها الإدريسي.

قال الزاوي: وهو، اليوم الحد العادي بين البلاد المصرية وبلاد برقة...

هنا في الموقع انتظرت القافلة حتى التأم جمع الحجاج ولم يصل آخر الركب حتى غاب الشفق وغرب، وتفرق الناس بين هاتيك التلال يستقون من مائها العذب الزلال... لقد توزع القوم على الآبار يسقون البهائم والآبال وأقبلوا على امتلاء القِرَب كل الإقبال...

الحديث عن عودته:

غادر مصر يوم الخميس من رجب 1140 (12 فبراير 1728)، على أن يصل يوم الاثنين إلى **العَقبة** (عقبة السلوم) التي عرفنا أن إسماعيل رأفت بك يجعلها في كتابه (التبيان في تخطيط البلدان) حداً طبيعياً بين البلدين، ويعتبرها القدماء

---

(20) القصد إلى الشيخ الخياط عديل، وهي أسرة استمرت تتوارث مشيخة الركب، ويلاحظ ابن الطيب لم يفصح عن اسم الشيخ والمعاصرة حجاب كما يقولون..!!

نهاية بلاد مرمريكا من الناحية الشرقية وابتداء بلاد قورين، وهو الآن الحد العادي بين البلاد المصرية وبلاد برقة[21].

وعلى عادته لم يكن لابن الطيب الشرقي اهتمام بغير مناهل الماء، وعمقها وسهولة تناولها ومذاقها...

وكما هي عادته إيضاً فإنه يتتبع المراحل يوماً عن يوم، يذكر اسم اليوم وتاريخ الشهر.. بحيث ان مذكراته كانت يوميةً فعلاً...

ووصلوا إلى قبر الشيخ عزيز... ووصلوا إلى غدير الريفي فألفوهُ مملوءاً بالماء كأنه نهر... ووردت عليهم هنا طوائف من الأعراب بالسمن والتمر والغنم وغير ذلك... ثم إلى (عين الغزالة) حيث باتوا على غير ماء، على أن يرتحلوا يوم الأحد السادس والعشرين من رجب...

ثم نزلوا قبالة (التميمي) في محل معروف بكبكان حيث أقاموا به بقية الأحد ويوم الاثنين السابع والعشرين... سوق عظيمة اجتمع لها أهل درنة وغيرهم من أعراب تلك النواحي... وهنا جمعته الأقدار ـ لفترةٍ يومين ـ مع صديقه القديم أبي عبد الله سيدي محمد الأصرم القروي الذي كان اجتمع به في طرابلس على ما نتذكر...

ويتأكد أنه كان هناك شعور متبادل بين الرجلين، وهكذا وجدنا أن المبادرة تأتي هذه المرة من أن الأصرم كان يتتبع أخبار عودة قافلة الحجاج التي يوجد فيها ابن الطيب حيث يلتقي به على مقربةٍ من المدينة التي كان يسكنها الأصرم، هذه المدينة كانت هي درنة بالذات...

وفي المحطة التي تحمل اسم (التميمي) القريبة من ثغر درنة هنا وجدوا درنة في استقبالهم وقامت سوقٌ عظيمة اجتمع فيها أهل درنة وغيرهم من أعراب تلك النواحي، وجلبوا أنواع المطاعم والفواكه والخضر والشعير والسمن والعسل

(21) الزاوي: معجم البلدان الليبية. ص228.

وأنواع **الكعك** والخبز والمقروظ[22] وغير ذلك، وورد علينا ـ يقول ابن الطيب ـ جماعة من طلبتها ومنهم المحب الكبير الجدير بالتعظيم والتكبير، الفقيه الأديب البارع الأثير، أبو عبد الله **محمد الأصرم** الذي ذكرناه فيمن لقيناه بطرابلس...

ويذكر ابن الطيب أن هذه الاستشهادات ذكرته في قصيدة الإمام القاضي أبي الحسن الجرجاني المشهورة التي أولها:

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذلّ أحجما

أرى الناس مَن داناهُمُ هان عندهم ومن أكرمته عزةُ النفس أُكْرِمَا

ويخلص بعد هذا، للحديث عن كتابه (شرح منظومة مالك ابن المرحل السبتي)[23].

وكان حمله معه في هذه الرحلة للحجاز للمراجعة وللمتاحفة كذلك، وظهر أن الشيخ الأصرم اطلع على تأليف ابن الطيب... واستحسنه كل الاستحسان... وتمنى لو وجد فسحة من الزمان ليتحلى بفرائد فوائده.. وكتب عليه تقريظاً حسناً أجاد فيه ما شاء... مع ضيق الوقت وتزاحم الأشغال وهيجان البال بما يعجز رؤية الفحول من الرجال.

وارتحل ابن الطيب عن كبكبان (التميمي) وفارق أبا عبد الله الأصرم ونار الفراق في القلوب تضرم...

يبدو أن الأصرم هذا **فلت للذين اشتغلوا بأعلام ليبيا** ورجالها من العلماء والأدباء، كما يبدو أن وضع الرجل كان قلقاً من الناحية الاجتماعية... ولعل له صلة بأسرة الأصرم التونسية المترجم لها في بعض التآليف[24]...

---

(22) المفروظ هو الاسم الذي ما يزال إلى الآن مستعملاً في المنطقة.

(23) يعرف أن من تأليف ابن الطيب التي نالت العناية الكبرى كتاب (موطأة الفصيح لموطأة الفصيح) شرح به منظومة مالك بن المرحل (ت **699**) **لفصيح ثعلب** المشهور. وقد سمي شرح نظم الفصيح... والكتاب مخطوط خصص له الزميل الأستاذ د. عبد العلي الودغيري: القسم الأول من كتابه حول قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب.ـ التعريف بابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، طبعة 1409=1989، ص20 وما بعدها.

(24) الودغيري: التعريف بابن الطيب ص 91 تعليق 12.

الورقة 243 من مخطوطة ابن الطيب الشرقي الصميلي الفاسي
الموجودة في مكتبة لايبسيك تحت رقم 746.

ويذكر ابن الطيب في أول **مفازة السروال**، الموصوفة بكثرة الأهوال، صديقه الأديب أبا عبد الله محمد بن إبراهيم.

ثم إلى (المخيلي) الذي وجدوه فائضاً بالأمطار... وابن الطيب لا يمل من أخبار الماء وما يتصل بالماء من الأحواض والقِرَب والآبار... لا يهتم بغير ذلك حتى ليجعلنا نشعر بالقلق عليه وعلى من معه...!

ويتحدث يوم رابع شعبان عن حادث أزعج الركب ولو أنه لم يطل، فقد تاه الخبير!!. وحارت الألباب وتعبت المطايا تعباً جاوز الحد، وتورمت أخفافها وأرجل الرجالة، ولم يسلم من المشقة أحد..! إلى أن وصلوا إلى **معطن (سلوك)** بعد معاناة وكروب...

وفي كل هذا يتحدث عن دورِ العَلَّام إلى جانب **الخبير**، كما يتحدث عن دور **أمير الركب** في اتخاذ القرارات التي يجب أن تتبع، ولو أنها تخالف اجتهادات البعض حول الصواب من غير الصواب..!! وهذا موضوع هامّ في باب **آداب الأسفار**... التي تقتضي من الناس الالتزام بخلق الصبر والامتثال...

ووصلوا (**الأجدَابية**) التي صلوا بها ظهر الجمعة سابع شعبان ثم قصدوا معطن (المنعم)[25] وفيه فارقوا جماعة من أهل **فزان** جاءوا من مصر قاصدين بلادهم فزان...

ثم باتوا **بمقطع الكبريت** على غير ماء... ثم إلى (اليهودية) التي قال عنها ابن الطيّب. ويُحتمل أن تكون هي المشار إليها في الرسالة **القشيرية**...

وينقل ابن الطيب لنا **معلومة غريبة** تتحدث عن وصول بريدٍ من المغرب إليهم، غير أنه طال طواف الحامل، فقد خرج من فاس في المحرم وهم اليوم في منصف شعبان، ثمانية شهور فرق!!

وفي **معطن** (النعيم) تلقتهم طوائف من أعراب الزاوية ومنهم **الفرجان** وغيرهم

---

(25)موقع شرقي مقْطَع الكبريت، ومن الرحالة المغاربة من رسمه باللام في الآخر عوض الميم كالناصري وصاحبنا الشرقي.

في عدد كبير وأبّهة عظيمة، ووجدوا حول المعطن **عسكراً من أتراك طرابلس** ذكر لنا أنه خرج ليأخذ عوائد ووظائف على أعراب تلك النواحي..

وتحدث عن سوق أقيمت هناك عظيمة لكن الأتراك أفسدوها لأنهم أرادوا أن يقتلوا رجلاً من قرابة أمير طرابلس كان يوجد بالحج مع الركب الجزائري، وتأخر في مصر لمقتضياتٍ عرضت له حتى غرَّب مع **الركب المغربي**، يقال له الحاج محمد بوشاقور، فطلبوا منه أن يتوجه لخيامهم لإكرامه فأشبعوه ضرباً ورجع فاراً بنفسه منهم.

ثم إلى (قصور حسان) نسبة إلى بانيها **حسان بن النعمان** الذي أرسله الخليفه عبد الملك بن مروان سنة سبع وسبعين لفتح إفريقية، فتغلبت عليه **الكاهنة** فاضظر للرجوع إلى سُرْت حيث أقام بها نحواً من ثلاث سنوات وكانت فرصة لبناء تلك القصور التي اندرست اليوم، ولم يبق لها أثر إلا في ذكر الرحالة...

ويصلون إلى ضريح الشيخ أحمد زروق حيث تفرق الناس في أفنيته ومسجده وأمامه وخلفه.. ثم مروا على (ازليتن) حيث ضريح الشيخ الأسمر الفيتوري الذي ألف حوله الشيخ علي بن الصادق تأليفاً اسماه: (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام **بن سليم**).

ثم دخلوا **ساحل حامد** حيث زاروا روضة الشيخ أبي بكر الفرداوي **الزياني**، ثم روضة الشيخ علي **الفرجاني** والشيخ عمر الشارف، وسيدي بو عصيدة الذي كان يصنع العصيدة للحجاج عند مرورهم بساحته ذهاباً وإياباً... ثم الشيخ محمد القلعي الشريف، ثم إلى وادي المسيد، ثم وادي الرمل ثم **تاجوراء** حيث زاروا سيدي أبو النور وسيدي عبد الله قادر، ثم المنشية ثم طرابلس حيث **تلقاهم الشيخ سيدي أحمد بن صالح**[26] بقرب ضريح سيدي محمد بن سعيد...

---

(26) نتساءل هل أن له صلة بالشيخ أبي محمد صالح الذي كان له في كل محطة من محطات ركب الحاج من ساعد القاصدين على إنماء فرضهم.

لقد أظلهم شهر رمضان في المنشية في طرابلس حيث قضوا نحواً من سبعة عشر يوماً يترددون على زيارة الصالحين، والأصدقاء والمحبين. . .

وهكذا زاروا أبا عبد الله محمد الماعزي[27]، وأبا العباس أحمد الغزي، وأبا عبد الله محمد بن مساهل الطرابلسي[28]، وكانت مُدارسة المسائل العلمية حاضرة. . .

إلى أن غادر طرابلس يوم السبت الرابع عشر من رمضان سنة أربعين ومائة وألف. . . إلى (قر قارش) الموضع المعدّ لنزول الأركاب. . . ثم الزاوية ثم الزورات الشرقية ثم الزوارات الغربية. . .

النص الكامل المتعلق بالجماهيرية الليبية العظمى من رحلة محمد بن الطيب الشرقي الصميلي الفاسي أثناء ذهابه وعودته. . .

/82. . .وسرنا فحصلنا الزوارات الغربية عند ارتفاع النهار، ونزلنا ريثما سقينا من آبارها العذبة الباردة الصافية الفائضة ولا فيضان الأنهار، واشترينا من أهلها الزبيب والتين وقضينا منهم بعض المصالح، وزرنا من أمكنت زيارته من صالحيها مثل سيد عبد الله بن صالح، وسرنا حتى أتينا الزوارات الشرقية ظهراً فصليناه بها وركبنا، من الجادة ظهراً الإبل السراع وبتنا قرب مليتة، وارتحلنا وكل واحد يحدو أمنيته، فأتينا مليتة مع الشروق، وعجلنا لسيدي أبي عُجيلة لننال من بركته ما يروق. ومنه وصلنا قرية زواغة، فصلينا فيها الظهر بعدما توضأنا من مياهها الصوَاغة، وعاينا فيها من آثار العمران والبنيان، الظاهرة للعيان ما يبهر العيون ويقف الأعيان، وفيها مسجد مشتمل على أساطين فائقة وهيئة في

(27) القصد كما يبدو إلى الشيخ محمد الماعزي المتوفى عام 1167. انظر نفحات النسرين والريحان. ص152.

(28) نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب الأنصاري. تقديم وتحقيق على مصطفى المصراتي، منشورات المكتب التجاري بيروت 1963. ص129.

العيون رائقة/ 83، غير أن في قبلته انحرافاً للمغرب، على ما كان فيه من الوصف المغرب، ومنها بتنا في الزواية، فتلقانا أهلها بالترحيب وكانوا لبيوتنا زواية، وظعناً منها يوم الأربعاء فظللنا نسير في ظلال الزياتين والكروم والتين، حتى وصلنا **قرقارش** قبل الزوال، وأخذنا في النزول فيه وتركنا الذهاب منه والزوال لنملأ الراحة بالراحة، ويكون دخولنا **لطرابلس** صباحاً بعد الاستراحة، وورد لملاقتنا جماعة من الحجاج المغربيين وغيرهم من أهل طرابلس المقربين.

دخلنا طرابلس الظريفة، ذات الفواكه المُنوَّعة والظلال الوريفة، صبيحة يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان، فألفيناها أزهى من دمشق وشعبان، وجسنا خلال ديارها، وأشرفنا من شرفاتها على تيارها. فإذا هي مدينة صغيرة المساحة، خصبة الساحة، كثيرة الفواكه، ليس لها في زيها ولطافتها مشابه ولامشاكلة، ولها بابان، باب إلى البر وباب إلى البحر، لأن البحر محيط بكثير من جهاتها والحصار الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر، بينه وبين البحر، وقد شاهد أهلها **بركةً عظيمة** في أمر معاشهم وقت الحجاج، فقد يجتمع فيها الركبان والثلاثة والأربعة، ويكون عسكر البحر خارجاً في البحر بعض الأحيان ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم، بل ربما نقص مع أنه معروف بالغلاء بالنسبة **لأرياف النيل** والمغرب، غير أن في الطحن بها غاية المشقة إذْ رحاهم إنما تدور **بالإبل** فتبطئ في الدوران. وفيها من المساجد الأنيقة الجسيمة، المشتملة على الأبنية الفائقة الوسيمة، ما في مرآة البديع، نزهة للناظر بين المناظر، ولا سيما المسجد المعروف بجامع الترّك، فإنه ما ترك شيئاً من المحاسن البديعة إلا حاز عجيبه وبديعه. وزرنا فيها من المشاهد المزارة ما نسأل مولانا أن يمنّ بالقبول على من قصده أو زاره ويحط ببركته مآثمه وأوزاره. وأصبحت الجمعة فتوجهنا لصلاتها واغتنام صلاتها ودرجنا مع من درج، لإيقاعها في جامع /84 الدرج، فرقى المنبر إمامه المسن الخير الأكبر الشيخ أبو محمد عبد القادر الحنفي، وأبدى خطبة رائقة رقيقة جمعت لطيف الوعظ ورقيقه.

وقد رأينا فيها من الأعلام من تروق بحلاهم الأقلام، فمنهم صدر

الأفاضل المتحلى بأسنى الفضايل وأسنى الفواضل المتجلى بالكرامات لكل فاضل، الفقيه البارع النبيه العالم المشارك الذي ليس له في مشاركته شبيه، الأديب الماهر الذي أزرت لطافة آدابه برقة ابن النبيه، الحافظ الراوية الذي ما برح يدون ما يسند من العلوم ويروي، أخونا ومحبنا الأعز علينا، أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الأصرم القروي[29]، أدام الله بهجته وأبقى محبته، ألفيته ورد على طرابلس لغرض لا يمكنه الإعراض عنه بعدما عرض، ومع مساواته لنا في الاغتراب؛ وحلول غير التراب مع غير الأتراب، كان يبالغ في إكرامنا بأنواع الطعام والشراب، وأخذ في الرغبة في تأنيس غربتنا وما تأنى ولا استراب، وأظهر لنا من المحبة الصافية والخلة الوافية ما نسأل الله تعالى أن يكافئه عليه، ويمتعنا وإياه يوم القيمة بالنظر إليه. وكانت تقع بيننا في أنواع العلوم، مباحث، يستحسن الخوض في بحرها بفلك فكره كل باحث، وقد حمله صادق المحبة وحسن السيرة وصفاء المودة والسريرة على أن خاطبني بقوله:

قسماً بمن أولاك أرفع منصب ... وبما حويت من البيان المعرب
ما شنَّف الآذانَ مثلُ فصاحةٍ ... أذنت بفضل محمد بن الطيب
شرفت به فاس وحق لها العلا ... فلذاك أضحت بيت فضل المغرب

وكنت خاطبته بأبياتٍ أظن صورتها والله أعلم.

قسماً بمكة والحطيم وزمزم ... والركن والبيت الشريف الأعظم
ما إن سمعت بمشرق أو مغرب ... كلاَّ ولا في الروم أو في الدّيلم
مثل الفقيه البارع اللسن الأ ... ديب اللوذعي محمد بن الأصرم

وكان ينشدني من المقطعات البديعة، الحائزة مستحسن الأدب وبديعه، ما يدل على نورانية بدره، وإشراقية ذكائه، وعلو همته وحسن ذكائه وكنت أثبت

(29) من الطريف أن نجد لهذه الشخصية ذكراً جميلاً أيضاً في رحلة الوزير الإسحاقي التي نشرها المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط عام 1976. انظر صفحة 144 ـ 145 حيث نجده ينشد الإسحاقي شعراً يتحامل فيه على أهل طرابلس!!

منها ما عدت عليه يد الإضاعة وحسده ريب / 85 الزمان فأتلفه وأضاعه، غير أني تذكرت من ذلك السماع بيتينِ علقا بالأسماع وهما:

أفِ لـذي أدبٍ يـرضـى بـمـنـقـصـةٍ ولـم يـكـن مـثـل بـازٍ فـوق قـفـاز
يـومـاً بـمـصـر ويـومـاً بـالـشـآم، ويـو مـاً بـالـعـراق وأيـامـاً بـشـيـرازِ[30]

فنسأل مولانا سبحانه أن يجمعنا به مرةً أخرى، **لنظفر بتلك الآداب التي لم تزل لأولي الألباب غنيمة وذخراً.**

وقد سألني عن لفظ طرابلس وكيف يضبط وعن لغاته الثلاث، فأجبته بأنه يقال اطرابلس بالألف في أوله وبحذفها مع ضم الموحدة واللام معاً وقد تسكن اللام، وبعضهم يفصل فيقول طرابلس هذه الغربية إنما تقال بغير ألف فقط، وذات الألف هي الشامية والله أعلم، فاستحسن ذلك.

ومنهم الفقيه الخير المسن الأتقى الأنقى المستمسك من الديانة والمروءة بالعروة الوثقى الشيخ أبو عبد الله محمد المُكَنَّي[31] المشهور بالفتوى في تلك الأقطار منذ أعوام، بين الخواص والعوام.

ومنهم الفقيه النبيه، النبيل الذي سلكت فتاويه العلمية في كم من سبيل، واتخذت المروءة والصيانة ربعه مربعاً للمبيت والمقيل، والشيخ أبو عبد الله محمد بن مقيل.

ومنهم الفقيه المشارك في أنواع المعقولات، الذي عجزت عن تحصيل مباحثة الأصلية والفرعية المقولات، نادرة الأوان الشيخ أبو محمد عبد العزيز مروان.

ومنهم الفقيه النبيه الفاضل الذي حاز أفاضل الأخلاق وأخلاق الأفاضل

---

(30) يلاحظ أن البيتين المذكورين ورداً عند ذكر حاشية ابن الطيب على القاموس للزبيدي في معرض أنه، أي ابن الطيب، كان يؤلف الحاشية المسماة (إضاءة الراموس) وهو يتنقل من جهة إلى أخرى.

(31) المخطوطة: المكنسي بالسين وهو خطأ من الناسخ على ما يبدو، انظر رحلة الإسحاقي للدكتور النازي. ص141.

الشيخ أبو العباس أحمد بن الصغير وقد أكرمنا في داره مراراً وأمر علينا كراماته إمرارا.

ومنهم الفقيه الخطيب، وغصن الفصاحة الرطيب، الشيخ أبو العباس أحمد كنست؟ الخطيب، بجامع الترك الأعظم. وقد صلينا معه الجمعة الثانية فأبدى خطبةً بالغ فيها في أمر الحاج وعظم، مع فصاحة المنطق وانطلاق اللسان والإتقان، في تحكيم الألفاظ والإحسان. ورأينا غير هؤلاء من مطلق الطلبة زيادةً على الأعيان، لكن بيننا وبين إثبات ذكر اسمائهم النسيان. وأقمنا نحو التسعة أيام، وتأهبنا للتقوية على السفر والصيام / 86.

كان رحيلنا منها بعد صلاة الظهر من يوم السبت الرابع من شهر رمضان الذي هو أكرم شهر، فنزلنا بآبار قبل **تاجوراء**، وبات معنا جماعة ممن خرج لتوديعنا من الأصحاب وغيرهم مبروراً مأجوراً. وارتحلنا يوم الأحد، فرجع من أهل التوديع كل أحد، ومررنا بتاجوراء عند الصباح، وقفنا لزيارة من أمكنت زيارته من مشاهدها الصباح. ثم مررنا **بوادي الرمل** [32] ثم بوادي

---

(32) سمي وادي الرمل لكثرة رماله، وقد تناولته يد الإصلاح وأصبحت الرمال أرضاً مملوءة بالشجر والعشب، هذاوقد جاء في ديوان دعبل في قصيدته التي يذكر فيها مناقب اليمن بيت شعر يشير فيه إلى وادي الرمل في المغرب، وهو قوله:

وفي صنم المغارب فوق رمل تسيل تلوله سيل السفينا

ذكر هذا البيت بعد أن ذكر من مناقب اليمن أنهم ذهبوا إلى مرو، وإلى الصين ثم ذكر من مناقبهم أنهم وصلوا وادي الرمل بالمغرب وبنوا فيه صنما.

قال شارح ديوان دعبل: وصنم المغارب أقامه الملك الحميري (ياسر ينعم)، وكان قد خرج غازياً من اليمن وتوجه إلى المغرب، فبلغ وادي الرمل الذي يسيل، ولم يبلغه أحد من الملوك غيره، فلما انتهى إلى الوادي لم يجد مخرجاً ولا مجازاً، فأمر بصنع صنم من النحاس على هيئة إنسان، فصنع ونصب على صخره، ثم كتب على صدر ذلك الصنم كتاباً «بالمسند»، وأبياتاً من الشعر له على لسان ذلك الصنم، وكان الصنم يشير إلى أن من أتى إليه من أمامه أن يرجع.

وقد أحال شارح الديوان هذه الحكاية إلى كتابه: ملوك حمير وأقيال اليمن، لنشوان بن سعيد الحميري (ص89 ـ 90)، وذكر أن ابن خلدون استبعد في مقدمته وقوع هذه الحكاية... وأنه لم يسمع ذكر وادي الرمل في المغرب إلى آخر ما نقل عن ابن خلدون.

ووادي الرمل المذكور هنا في رحلة ابن الطيب الشرقي الصميلي الفاسي الذي سيذكره الوزير الإسحاقي، ص147: أرض فيها كثير من كثبان الرمل على يمين الطريق وشماله، وتمتد =

المسير[33] بعد أعمال أنواع الذميل والمسير، وكل الوادي بين وصفه أبو سالم بكثرة الخصب والنعماء وجزالة الحطب وغزارة الماء، وبتنا بقرب موضع يسمى تورغت[34] وهو المعروف الآن بوادي التوتة أو التوت وسماه أبو سالم وادي ينون[35].

وارتحلنا فأصبحنا بذلك الواد ومررنا بما حوالي النقازة[36] من الأطواد، وظلنا بروضة الشيخ سالم القلعي نستظل بظل سرحه الظليل، ونسأل الله كمال السلامة بحق ذلك السيد الجليل وألفينا بإزاء الروضة جباً مملوءاً من الماء النمير، فأخذ الناس في الاستقاء منه حتى اكتفى المأمور والأمير. وبقينا هنالك ننتظر مرور الآبال، لتعذّر تتابع السير بين تلك الجبال، وصلينا الظهر وقربنا من وادي لبدة[37]، وبتنا في أنعم عيش وإنعام عين. وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا

= من الشرق إلى الغرب مسافة 45 ك.م. ويقع شرق مدينة طرابلس بنحو 40 ك.م. وإلى يمين الذاهب فيه إلى الشرق جبل، وبقرب الجبل عيون عذبة الماء. وفي مقابلة الجبل إلى الشمال بئر طشانة... حيث التجأ أهل الأندلس على ما يقال... ويؤكد الزميل الراحل الطاهر الزاوي وجود أصنام حواليه ما تزال منصوبة إلى اليوم...

وهذه الرواية هي التي يستند إليها من يقول: إن البربر من أصل عربي حميري، وإن مبدأ وجودهم هذا الغزو اليمني... ولكن ابن خلدون يقول إن البربر جنس من البشر لا يعرف أوله ولا ما قبله.

الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، منشورات دار مكتبة النور ـ طرابلس ليبيا، 1388=1968. ص48 ـ 342.

رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، طبع أكاديمية المملكة المغربية. 1997، ج2، 416 ج17، 442.

(33) لعله وادي المسيد، الذي يعرف هنا إلى المسير بالراء، رحلة الإسحاقي ومعجم البلدان الليبية.

(34) يرسمه صاحب معجم البلدان الليبية: ترغت بضم التاء والعين، ويقول إنه مكان شرقي وادي الرمل بنحو 32.

(35) عدة آبار من أراضي قماطة مما يلي مسلاته... يظهر أنها من بقايا الروم، المعجم 359.

(36) النقازة: رؤوس جبال كثيرة متقاربة بينها وهذا يختلف عمقها باختلاف ارتفاع تلك الرؤوس الجبلية وانخفاضها وتبتدئ من الكيلو متر 36 شرقي القربولي وتنتهي في الكيلو متر 45 إلى الشرق قبيل المرقب بقليل، وسلسلة جبال النقازة فتقع في نهاية امتداد سلسلة جبال الأطلس التي تبتدئ من مراكش على ساحل المحيط الأطلسي، وتنتهي في الشرق بهذه الرؤوس الحجرية.

معجم البلدان الليبية، ص330.

(37) لبدة: مدينة فينيقية قديمة أسست في أوائل القرن العاشر فاحتلها الروم سنة 42 قبل =

بقصر البنات[38] المزرية شرفاته برؤوس البنات، قصر قصر عليه الحسن والإحسان، وقصر دون وصفه اللسان برعت حجارته في الضخامة والعظم وتناسبها، وتناسقها أعجب منها وأعظم. وظلنا سائرين حتى غربت الشمس، وبتنا بالبئر المعروفة بمسيلين[39] كمبيتنا بالأمس.

وفي أثناء هذه المراحل قطعنا الجبل الذي هو منتهى الجبال في تلك البلاد وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولاً وعرضاً وحطباً وماءً وقرى متصلة وعمرانا متراكبا وقبائل وافرة غالبها بربر وأوله من البحر المحيط، أطراف السوس الأقصى ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبل مراكش، وهو المسمى جبل دَرَن[40] ثم يمتد كذلك إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان، ثم لم يزل يساير / 87 البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع، ويسمى في كل بلد باسم. وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة. وقال صاحب تقويم البلدان إنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل، قال الشيخ أبو سالم: وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه، لأن بلاد برقة مرتفعة على ما يجاورهامن بلاد فزان ونواحيها والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل، ثم استظهر ما ذكرناه أولاً وقال إنه اقتصر عليه غير صاحب

= الميلاد، وأدخلوا عليها من فن العمارة الجميل والزخرفة ما جعلها في مقدمة المدن الأثرية، وقد كشف الحفر فيها عن جمال الفن الرائع والتنسيق الجميل، وكانت تستقي من عين كعام ويصل إليها الماء في قنوات متورة في حجارة صماء. ففتحها المسلمون سنة 22 هـ ولم يجدوا فيها مقاومة لأن الخراب تسرب إليها قبل الفتح الإسلامي بكثير. . . وكان بعض الناس من فقراء البربر يسكنون حولها وفي بعض خرائسها، وتقع شرقي مدينة طرابلس بنحو 134ك. . وكم زرتها أيام سفارتي بليبيا. . . وانظر ما كتبه الإسحاقي عنها في تأليفي (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي) ص. 152 (1).

(38) قصر البنات: بقايا قصر من آثار الروم بوادي نفذ بأرض أرفلة، معجم البلدان الليبية. ص269.

(39) لعل لها صلة بالموقع الجغرافي (المسلات) بنايات مرتفعة تشبه (المسلات) بأرض أو رفلة. . . المعجم.

(40) القصد هنا إلى الأطلس الذي يمتد فعلاً من ضاحية مراكش (أكونسان) مروراً بتلمسان إلى أن ينتهي على أراضي برقة التي من أشهر مدنها اليوم بنغازي ودرنة.

التقويم، وأقول إن عبارته قريّبة من عبارة غيره إذ لا كبير فرق بينهما عند التأمل[41]. قال أبو سالم: وغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد خصبة ذات أنهار وعيون وأشجار، وقبلته ذات نخيل ورمال من البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة، وفي هذا المحل الذي قطعنا منه آثار أبنية كثيرة، وفي سفحه الذي يلي **ساحل حامد** مدينةٌ عظمية يقال لها مدينة لبدة[42] قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها، قد أكل البحر كثيراً منها وفيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هرم الدهر وما هرمت، وتعاقبت عليها الأزمنة وما ثلمت، فترى الأبنية ماثلة متقابلة على **روس الجبال** مد البصر بحيث يقضي الحدس أن كل ما كان داخلها كان مدينةً واحدة إلى البحر، وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل الكثير منها.

ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وغيرهما من البلدان ويقال إن بانيها **الملك دقيوس**، وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية، وذكر بعضهم أن **النمرود** لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين، وبعث ولده وأمره أن يبني مدينةً بالمغرب فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم، متصل من خرق الوادي إلى أطراف المدينة إلا أن ماء / 88 هذا الوادي الآن قليل عند أهلها أنه إذا بدت الملوحة في ماء الوادي فذلك علامة خرابها، فلما بدت الملوحة فيه أخذ أهلها في الانتقال منها، والله أعلم أي ذلك كان.

وقد ذكر العبدري هذه المدينة في رحلته وذكر أنه وجدها خاليةً والذي يظهر أنها خلت **قبل الإسلام** إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح إفريقية والله تعالى أعلم بغيبه.

---

(41) . . . كلام الشرقي الفاسي هنا عن سلسلة جبال الأطلس موثقاً بالمراجع التي ذكرها يعطينا فكرة. . . عن الزاد المعرفي للرحالة. . . ولا بد من العودة إلى المعلومات التي قدمتها لنا الموسوعة الإسلامية وهي تتحدث عن جبال درن.

(42) معلومات دقيقة جيدة عن مدينة لبلدة. انظر التعليق السابق. . .

وبعد أن ذكر الإمام أبو سالم خبر هذه المعالم قال (غريبة) أخبرني بعض أهل تلك البلدان أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدر ما سببه، فأمر بشق بطن واحدٍ منهم فشق عن قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم وأمر بصب جميع الأدوية عليها واحداً فواحداً، فلم تمت حتى أخرج زيتاً كان عنده في قارورة جاء به من أرض الشام فصب عليها قطرة من زيت فماتت فعلم ان دواء ذلك المرض أكل الزيت فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون فامر بغرسه في تلك الأركان كلها، من مسراته إلى سوسة وتونس وأعمالها. ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد والله أعلم[43].

وبعد هذه الأوعار بلد ساحل حامد[44] وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وسواني وزيتون إلا **أن نخل** هذا الساحل رديءٌ لا يدخر تمرهُ ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى **كقطع الجلد** لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم، لا يفرق بينه وبين لِحَاء الشجر[45].

وفي هذا الساحل قبر الشيخ الشهير المآثر والكرامات، الكبير المفاخر والمقامات سيدي مفتاح وهو على تل مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد، الدعاء عند قبره مستجاب.

وبقرب الساحل وادي تارغلات[46] وفيه آثار سانية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها عين كعام وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة

---

(43) قضية علاج الطاعون بالزيت أثيرت في الوثائق الدبلوماسية المغربية البرتغالية. راجع تعليقات ندوة آسفين 2004.

(44) ساحل الأحامد: بلد بجوار مدينة لبدة، طوله من الشرق إلى الغرب نحو 18 ك.م. والأحامد من قبيلة السوالم التي منها أسرة الجبالي التي كانت تحكم المنطقة الشرقية إلى الجبل الأخضر وهي فخذ من بني سليم، وهم عمومة أولاد نصر الذين منهم سيف النصر أصهار العاهل المغربي السلطان المولى سليمان.

(45) لقد اهتم الشرقي الفاسي بنوع التمور في هذه المنطقة وخيراً فعل، فقد كانت هذه الملاحظة باعثاً على العمل من أجل تحسين الإنتاج، وسنراه يقوم مرة أخرى بالمقارنة والمفارقة بين التمور في سجلماسة والتمور في سيوة. . . .

(46) واد يمر بعين كعام ويصب في البحر، وهو يأتي من جنوب العين بكثير، وحينما يصل إليها وادي عين كعام. . . التي يظهر أن الناسخ سمع اسمها كعان بالنون!

بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول، كل حجر فيه أربع أذرع فأكثر، منقورة في وسطها نقراً متقناً ومن رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلةً إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهراً أفنى أولئك الأقوام جدير بأن يستأصل بقية الأنام وينقلهم من حالة إلى حالة، ومن دارٍ إلى دار!! / 89.

وبعد ذلك بلد **زليتن**، وهي مثل الساحل في النخيل والسواني، وبه قبر الشيخ المشهور بالقوة والتصريف، الغني بكمالاته عن التعريف أبي محمد عبد السلام الأسمر، قال فيه أبو سالم: رجل من أهل المائة العاشرة، كثير الكرامات عالي المقامات، من أجل تلامذه سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس، والغالب عليه في أول أمره وآخره، وله تصرف قوي، وأخباره في قهر الجبابرة **وفك الأسارى من أيدي الفرنج في حياته وبعد مماته شهيرة**، وهو من بلدة يقال لها (**الفواتير**) وأمه مغربية دراوية[47]، ولم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين والعابدين من قديم الزمان، تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين، قالوا: وهم ظاهرون بها حتى الآن، وليس عليهم سمت متفقّرة الوقت، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة، وكل من رام أهل هذه البلدة بسوءٍ يقصمه الله، ولا يدخلها أحد فتجبر وتكبر إلا أذله الله! وبلدة **الفواتير** هذه بإزاء زاوية سيدي عبد السلام قريباً منها بنحوٍ من فرسخ، وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات، وقد أظهر الشيخ سيدي عبد السلام من المزارات والقبور شيأً كثيراً: منها قبر الشيخ مفتاح المتقدم الذكر.

وكانت له فرس أظهرت قبوراً كثيرة أيضاً، وذلك أنه كان إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض فيقول له الشيخ: احفروا فإن هنا قبر ولي فيجدونه، فظهرت بذلك مزارات كثيرة، وفقراء الساحل إلى الآن يعرفونها فيقولون: هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ! ولا بدع في ذلك فإن

---

(47) كنت سألت عن أصل هذه المعلومة فذكر لي قاض عالم فاضل أن والد السيد المذكور كان في طريقه صحبة زوجته، فغلبها ثقل حملها وبقيت تنتظر عودة زوجها الذي أدركه أجله هناك... وولد السيد وسط الترقال كبير به... ونشأ معتنىً به وكان من أمر أخباره ما ترى.

السرّ في الراكب لا في الفرس، والكرامة للشيخ لا لمركوبه وسر الولاية موروث عن النبوة، وقد بركت ناقة النبي ﷺ في مكان مسجده. عندما دخلت الحرم يوم الحديبية، فلله الله، إخواني في خدمة الصالحين ومحبتهم والحرص على ملاقاتهم وزيارتهم والإنحياش إلى ظلالهم وحمِيَ مزاراتهم، فإن لذلك أثراً عجيباً في تليين القلوب، وتسخير النفوس وإزالة المطلوب، وإذا كان لها تأثير في الحيوانات والجمادات، فما بالها لا تؤثر فيكم معشر الآدميين وأنتم السادات، جعلنا الله من المحبين لأهل ولايته، / 90 وحشرنا مع حزبهم وفريقهم تحت ظلال عَلَم الرسول ورآيته.

وارتحلنا يوم الأربعاء فدخلنا مسراته، وتوجهنا لزيارة الإمام العلامة المحقق في علوم الباطن والظاهر وسر الله المتجلي في جميع المظاهر، العارف بالله والدال عليه أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي[48]، حقق الله تعالى نسبتنا إليه، فوصلنا إليه قبل الظهر وتوضأنا في السانية التي لجنبه، واستفتحنا بصلاة ركعتين في المسجد المتصل بروضته المباركة ودخلناها بما اقتضاه الوقت من الآداب والوقار، وأخذنا في قراءة ما تيسر من السور القرآنية كالكهف وطه ويس وسورة الملك، وغير ذلك من قصائد المديح كالبردة وغيرها وختمنا بوظيفته رضي الله عنه في جماعةٍ حافلةٍ من الركب وغيرهم، وحضرت في ذلك الوقت نفحة ربانية من الله تعالى وابتهل الناس للدعاء والتوجة إلى الله سبحانه، وأخذ كل يسأل ما يشاء ويودع الناس عند قبره أنفسهم وأموالهم وأديانهم، وقد فعلنا ذلك فرأينا بركته، وشاع عند الحجاج أن من أودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع، ويفعلون ذلك إذا مروا به أو حازوه في البحر فيجدون بركته، ولا بدع في ذلك ولا غرابة فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، **والأولياء أبواب الله** فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظه فيه، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين فنسأله تعالى أن يمن علينا بالقبول وبلوغ المأمول بمنه وكرمه آمين.

---

(48) تراجع رحلة الوزير الإسحاقي، ص153، تعليق.

وكنت خاطبت الشيخ بقصيدةٍ فائقةٍ مشتملةٍ على أنواع من البديع رائقة، أولها:

أأحمدُ في مغناكَ قد ظِلْتُ أحمد ومثلك من يسدي الندى حين يحمد
ولا سيما والقول منك مصرّحٌ بذلك في بيتٍ من الشعر يُنشَدُ
إذا كنت في ضيقٍ وغمٍ وكربةٍ فنادِ: أيا زروقُ يأتيكَ أحمد!
فها نحن وفد الله زوّا رُ بيتِهِ وطيبةَ إذ يدعو إليها «محمد»
عليه صلاةُ الله ثمّ سلامه ورضوانه ما لاَح في الأُفقِ فرقدُ
فعجّلْ قرانا بالسؤال لربنا ليبلغَ من كُلٍّ لدى الربِّ مقصِدُ
ونظفَرَ في ذاك المقام بحجةٍ لها حجةٌ في البرّ ليست تفنّدُ
وفي روضةِ المختارِ نصبحُ كلما خرجنا عشقْنا العَوْدَ والعودُ أحمدُ/ 91

هذا ما علق منها بالبال، وما زال في القلب لفقد الضايع منها وجيب وبلبال[49].

ثم صلينا الظهر بالمسجد المذكور وزرنا خلوة الشيخ التي توفي بها وهي أمام المسجد قريباً منه ونزلنا حواليه، وقامت هنالك الأسواق العظيمة، امتلأت بالشعير والدقيق والسمن والتمر والأغنام وغير ذلك من كل ما فيه مآرب الأنام، وورد علينا جماعة من طلبة البلد، وبالغوا في الإكرام جزاهم الله تعالى جزاء الكرام، وسألوا عن مسايل عِلْمية تدل على ضعف العِلم في تلك الأرض وانقراضه وفشو الجهل في ذلك العرض واعتراضه. واستعد الناس لمفازةٍ نحو أربعة أيام وبالغوا في استقاء القِرَب مخافة الأوام.

وارتحلنا يوم الخميس مفازة (برقة) لأن مبدأها عند الحجاج من زروق إلى مصر، وأما أعراب تلك البلاد العارفون بها فإنما يطلقون اسم برقة على التعيين

(49) الإشارة: إلى ضياع النسخة الأصيلة للرحلة والاعتماد على ما بقي عالقاً بالذهن منها.

في هذه الأزمان على نحو مسيرة **ستة أيام** (المُنْعِم)[50] إلى (سلوك)[51]، وفيها آثار أبنية كثيرة. قال أبو سالم: وإطلاق برقة[52] على ما سواها مجاز، علاقته المجاورة، ورأيت له تقسيماً آخر نصه: أرض برقة منقسمة في عرف أهلها إلى أقسام: **أولها** من (حسان)[53] إلى ما وراء (الاحمر)[54] بيومين.، **يسمى سرت، ومن هناك** إلى أقرب المنعم يسمى برقة البيضاء، **ومن هناك** إلى سلوك برقة الحمراء، **ومنه** إلى (التميمي)[55] يسمى (الجبل الأخضر)[56]، **ومنه إلى العقبة الكبيرة**[57] **يسمى البطنان**[58]، **ومن العقبة الكبرى** إلى الصغرى يسمى بين العِقَاب، ومن **العقبة الصغرى** إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى.

قال وتقسيم العبدريِّ جارٍ على اصطلاحِ وقته، قلت:

وهذا التقسيم هو الجاري على اصطلاح زماننا هذا في الغالب، وأما العبدري فقال: برقة مدينة قديمة **من بناء الروم** وكان اسمها عندهم انطابلس،

---

(50) المنعم: اسم موقع شرقي مقطع الكبريت في أرض رملية، فيها كثير من الأعشاب التي تنبت في الأرض السبخة وبه أحساء ماء عذب.

(51) سلوك أو سلوق: مكان ببرقة جنوبي بنغازي إلى الشرق قليلاً.

(52) حديث مفيد هنا عن (برقة) في القديم ومحاولة لإبراز حدودها، وإن ما يرويه الشرقي الفاسي اليوم يظل وحده عمدة الذين تحدثوا عن هذه المنطقة التي يعبر عنها المثل، المغربي الشائع: «حج وجاز على برقة، وما بقيت فيه مرقة»!

(53) يعني قصر حسان أو قصور حسان سالفة الذكر...

(54) الأحمر: مكان بأرض سرت يقع شرقي مدينة سرت بنحو 85 كيلو مترا.

(55) التميمي: واد على ساحل البحر، شرقي بني غازي بنحو 351 ك.م وبه أحساء ماء عذب.

(56) الجبل الأخضر يمتد في سهول برقة الشمالية الساحلية من الغرب إلى الشرق على مسافة 400 ك.م. خصب الأرض كثير الأشجار، كثير ينابيع المياه... وكثير من هذه العيون مياه، ومنها ما يكون أنهاراً.. ويتكون هذا الجبل من ثلاث هضاب، أعلاها ترتفع عن سطح البحر بنحو 860 متراً، وتكسوهُ أشجار ونباتات دائمة الخضرة، وتتخلله أودية عميقة، وفيه أنواع من أشجار الزيتون والصنوبر والبلوط والخروب، إلخ، معجم البلدان الليبية.

(57) العقبة الكبيرة، هي بالذات عقبة السلوم، عقبة صخرية يختلف ارتفاعها بين 250 و300 متر على سطح البحر، سماها الإدريسي عقبة السلوم وتعرف عند العرب بالعقبة الكبيرة... الحد العادي بين مصر وبرقة.

(58) البطنان: اسم للأرض الواقعة بين كنبوت (قرية ببرقة شرقي طبرق بنحو 63 ك.م)، وأم الرزم (على حدود البطنان من الغرب وهي أرض قبيلة المنفة من أرض برقة الشرقية).

قال البكري: ومعناها بلغتهم خمس مدن، ومعنى طرابلس ثلاث مدن، وليس الآن هنا مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة إلاّ طلميثة[59] وهي قديمة، ولست أدري أهي (برقة) فغير اسمها إلى (طلميثة) أم غيرها.

وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة، والمغاربة يسمون بها ما ردت عين أقيان من غرب جدابية[60] إلى الإسكندرية، وذلك نحو من أربعين مرحلة / 92، وأما عرب تلك الأرض فإني رأيتهم لا يسمون بها إلا ما رد الحصون شرقاً إلى أرض برنيق[61] غرباً وهو حد الغابة وما والاها من الساحل ومن القبلة، ويسمون ما رد الحصون إلى العقبة الكبيرة (البطنان)، ومنها إلى الإسكندرية لا يذكرون إلا العقبتين. قلت: وأوله في غاية البعد عن اصطلاح وقتنا، وأما آخره فقريب منه والله أعلم، أعاننا الله على قطع فيافيها ورزقنا القوة التامة فيها.

وسرنا من زواية الشيخ إلى آخر تلك القُرى المتصلة به لأنها آخر العمران هناك، ولا عمارة بعده في طريقة الحاج، إلى الإسكندرية، ومررنا في آخر العمران بقبة **الشيخ سيدي أبي شعيفة** [62] على تل مرتفع بساحل البحر وزرناه

---

(59) طلميثة: بلدة ببرقة على ساحل البحر، شرقي بني غازي بنحو 104 ك.م، والكلمة محرفة عن بطوليمايس التي أسست في القرن السادس قبل الميلاد كمرسى لمدينة (بارشي): المرج، وبها متحف للآثار، ومن آثارها المدافن البطلمية، الصهريج العظيم والمسرح الرومان ويربطها بالمرج طريق معبد.. معجم البلدان الليبية.

(60) جدابية أو أجدابية: بلد من برقة، وهي مدينة قديمة كانت مشهورة في القرون الأولى من حكم العرب، وقد أنشئت في مكان مدينة رومية قديمة ووجد فيها من آثار الروم ما يدل على ذلك، وكان بها جامع بني عام 300، وجعلت له مئذنة مثمنة الشكل، وقد تهدَّم هذا الجامع وبقي محرابه، وعرف بجامع سحنون وممن ينسب إليها من العلماء أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعلي الأجدابي اللواتي مؤلف «كفاية المتحفظ» في اللغة، وقد زرتها أواخر الستينات وأنا سفير لبلادي في ليبيا... انظر 160 ـ 161 ـ 162 من تأليفي حول رحلة الوزير الإسحاقي حيث توجد رسوم تاريخية.

(61) برنيق: مدينة يونانية التي من أجلها كان إقليم برقة يسمى انطابلس، وموقعها في مكان مدينة بنغازي العربية عاصمة برقة اليوم... معجم البلدان الليبية.

(62) أبو شعيفة: بالتصغير اسم وليّ بمصراته مدفون على تل مرتفع على ساحل البحر... وقد مر بهذا المكان صاحب الرحلة الناصرية عام 1109 أي قبل ثلاثين سنة، وقال: وإلى هنا انتهت مراحل برقة التي قيل فيها على ألسنة العامة (غرقة ولا برقة)... معجم البلدان الليبية.

ووقفنا حول المغارة التي هناك بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون، ولا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة البحر، وتركنا معطن العُرَيْعر[63] بين السبخة والبحر للاستغناء عنه بماء القِرَب وإن وصفه أبو سالم بكونه طيباً حلواً، ووصلنا ظهرا، لموضع يسمى السُّميذة بالتصغير وكأنه سمي بذلك لشبه رمله بالسيمد مشابهة تامة كما يشهد بذلك من رأى حروشة رمله ودقته من الخاصة والعامة فتفرق الناس فيه، وأخذ كل واحد يحفر مقدار ذراع ويطلع له من الماء ما يكفيه، فسقينا من مائها المِلح الدوابَّ، وتوضأنا واغتنمنا ما في أداء الفريضة من الثواب.

وسرنا حتى وصلنا الموضع المعروف بالملف في سباخٍ مديدة على شاطئ اليم، وبتنا في أرغد عيش وأتم.

وارتحلنا يوم الجمعة فوصلنا عند الزوال للهايشة[64] التي هي كاسمها هايشة، أسقطت في غدرانها كم من راكب، وعثر في حجارتها الضخمة كثير من المراكب. قال **الإمام أبو سالم**: **والهائشة** سبخة مستطيلة، وعلى جوانبها بناء قصور خالية، وفيها نخيل متفرق كأنه **روس الشياطين**! لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيما المعاود، لما يستشعر بعده من المفاوز والمهامة والمعاطش التي يحارفها الدليل، كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الآيبِ لدلالته على انقضاء المفازة، وقرب العمارة، ونخيله آخر نخل يراه الذاهب، وأول نخل يراه الآيب، وماءُ الهايشة ملح أجاج لا يكاد يساغ، يضرب به المثل في القبح، وليس في مياه/93 برقة منه إلا مواضع قليلة لا يعتمدها الحاج مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلا من اضطره العطش. وكانت أيام الحرّ، وهو ماءٌ راكد في مواضع كثيرة، يحيط به القصب وبعضه أشد قبحاً من بعض،

---

(63) العريعر هو بالذات العرعار: مكان بين مصراته وتاورغة على ساحل البحر... وفي أيام الحكم العثماني بنت فيه الحكومة مركز العامة تحت اسم قصر العرعار.

(64) الهايشة يرسمها الزاوي الهيشة بكسر الهاء، بلد تتصل بتاورغة من الجنوب إلى الغرب بقليل، وبها مستنقعات كثيرة ملحة ونخل كثير، وبها عيون صغيرة تمد هذه المستنقعات...

وبآخر الهايشة واد من الملح: يجري الماء على أرضٍ من الملح، فلا الماء يجمد ملحاً ولا الملح يذوب ماء، وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل[65].

وحيث وصلنا الهايشة تفرق الحجاج يسقون دوابهم من مائها الأجاج، وتوضأنا فيها وصلينا وسرنا **لوادي الملح** المتصل بآخرها، المعروف اليوم على ألسنة الحجاج **بالمخاضة**، فعبرناه بعد لأي ولأي، وخضناه فيمن خاضه، وسرنا حتى غربت الشمس وأخذ أول الركب في النزول، ولم ينزل آخرُه حتى زال الشفق أو كاد يزول.

وارتحلنا يوم السبت فحثثنا السير ومررنا بين الظهر والعصر، بقبر الشيخ المشهور بالصلاح في كل عصر، سيد بومدْيونة من أولاد الوافي، عن يسار الذاهل مشرْقاً فزرناه وسرنا حتى وصلنا **مطرد**[66]، وبتنا حواليه لاحتياج الناس إليه، ومطرد بئرُ كثيرة المياه خصبة الساحة للأنعام والشياه، قضى المحتاج من مائها أربه، وحلت بغزارتها للظمآن أربه، ورويت البهايم، ولم يبق في الناس هايم، وألفينا بقربه محلةً عظيمةً من الأتراك يقول رائيها لصاحبه: تَراك تَراك! قيل لنا: إنها جاءت لنهب بعض قبائل الأعراب دون إعراب! فعلمنا أن **الجور عام في العالمين** وسألنا الله تعالى أن يقطع دابر الظالمين بجاه الرسول ﷺ آمين[67].

وأعراب تلك البلاد يعرفون بالفُرْجان، وهم أصحاب سَمْتٍ حسن وأخلاق أزهى من اللؤلؤ والمرجان[68]. وورد علينا منهم طلبة يقرؤون مطلق القراءة فأخذوا يتبركون بكل أحد ويسألون دعاءه.

---

(65) أوصاف ونعوت تذكرنا بالحال في بحر لوط (البحر الميت)!!

(66) المطرد يعني المكان الممتد، ويوجدُ في هذا الموقع بئر يحمل اسم مطرد.

(67) لقطة جيدة للشرقي الفاسي تعبر عن العالقات بين الأتراك والأعراب في تلك الأقاليم...

(68) يثني ابن الطيب على أسرة الفرجاني، وهو بيت علم معروف في ليبيا، ولا بد من قراءة ما كتب عن زاوية الشيخ علي الفرجاني بساحل الأحامد. معجم البلدان الليبية، ص 135 ـ 166.

وارتحلنا يوم الأحد فدخلنا بلاد سرت[69]، وسار الناس جادين في السير وسرت، وتركنا الزعفراني[70] يساراً لحيدودته عن الطريق واستغناء الناس عنه بما في القِرَب من الماء الرحيق. قال أبو سالم: ومعطن الزعفراني أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب، وعليه كثبان من رمل أحمر، تظهر من بعيد، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت، وهي ثلاث قصور تخزن فيها العرب/ 84 ميرتها، وكانت فيما قبل هذه السنة خالية. وفي هذه السنين ربما يوجد فيها بعض العمارة ممن تركته العرب على خزائنها حافظاً لها. وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة وأعرابها أهل رفاهية إلا أن **الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم**.

وقال في موضع آخر لما ذكر مزارع أولاد سيدي ناصر[71] وهي بعد العُويجة[72] ما نصه: وأولاد سيدي ناصر فقراء مرابطون من أهل سرت يطعمون من ورد عليهم، ومعهم طرف من الديانة إلا أنه أضر بهم جور الأعراب، لأنهم بين عرب سُرت وعرب بَرقة، فقلَّ ما يسلم لهم وقت من غارة، إما من هؤلاء أو من هؤلاء! غير أنهم الآن مستظلون بظلال أسمال من العافية لما ولّي عبد

---

(69) سرت مدينة قديمة أنشاها البربر في عصورهم الأولى قبل الإسلام، وكلمة سرت تطلق على المنطقة الواقعة بين قصور حسان والعقيلة مر بها البكري وذكر أنها (على سيف البحر)، الأمر الذي كان محل تعقيب، وإليها ينتسب عدد من العلماء، نذكر منهم أبا بكر عتيق بن القاسم السرتي...

ولو أفسح الله في العمر للبكري لغير رأيه في سرت التي أصبحت مجلبة للسرور بما فجره الله في أرضها من ثروات...

(70) الزعفراني أو الزعفران، موقع به أحساء بأرض سرت على ساحل البحر، تُسأت مدينة سرت القديمة من الشمال بينهما نحو أربعة ك.م. وماءها عذب، قال ابن غلبون: ولشدة عذوبته يقوم للحيوان مقام العلف...

(71) سيدي ناصر: رجل مشهور من عرب سرت، وله قبر معروف بجهة الهيشة سالفة الذكر، أولاده أهل صلاح وخير على ما سترى وقد مرّ بهم صاحب الرحلة الناصرية، وقال: إن جور الأعراب ضربهم لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة وقلما سلم وقت من غارة... معجم البلدان التونسية.

(72) العُويجة: بالتصغير: مرسى بحري في أرض سرت يسامت النوفلية من الشمال، ويقال له مرسي النوفلية...

الرحمن الجبالي[73] الملقب (**سيد روحه**) على البلاد وقهر الأعراب وقويت شكيمته على أهل البادية فأمنت السبل بعض الأمان فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم وعمرت البلاد بعض العمران، وتلك سنة الله في البلاد والعباد. إنَّ **الولاة وإن جاروا خيرٌ من مرج الرعية يعدو بعضهم على بعض**، فيعم الخراب الحواضر والبوادي، وبهذا السبب خلت أرض برقة كلها، وهي مسافة شهرين وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية، لا تكاد تسير فيها بريداً ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة دائرة، وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل عمارتها تضعف إلى أن خرج عَرَب هلال من مصر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ، وما صُرح به من كون سرت أرضاً لا مدينةً هو المعروف المتداول. وأغرب البكري فنقل أنها **مدينة ونقل ذلك** العبدري فقال: وسرت يطلق على عدة قصور بينها مسافة أولها الشبيكة[74] وهو أعمرها في الوقت، وآخرها يسمى المدينة[75]، وأكثر ما يطلق اسم سرت عليها وحكمها كلها **حكم الفقار**، وقال البكري في المسالك: إن سرت مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخل وبساتين. وذكر نحو ذلك في اجدابية.

ومررنا في وقت الظهر، ببئر قرب القصر المعروف **بقصر الذباب**، وهو قصر استولى عليه يباب، وناداه الخراب من كل باب، فتفرق الناس يبالغون في الحيلة والتدبير في كيفية الاستقاء من تلك البئر، فمنهم من تيسر له من مائها الملح سقى الدواب، ومنهم من رأى أن ترك ذلك هو الصواب، لما في مناولته من المشقة، وبُعد المشقة وعدم الوفاء بالأغراض، وعمق البئر وملوحة الماء

---

(73) كانت أسرة الجبالي تسكن ساحل الأحامد ويمتد نفوذها إلى الجبل الأخضر ببرقة، وللأسرة تاريخ حافلٌ بجلائل الأعمال ذكره الزاوي مفصلاً في تعليقه على تاريخ طرابلس الغرب (التذكار)، لابن غلبون (أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون).

(74) هكذا ورد الاسم عند العبدري عن قصور سرت. رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، طبع جامعة محمد الخامس 1388=1968، ص85 ـ 136.

(75) المدينة: تصغير: مكان في أرض سرت به آثار قديمة... ويظهر أن هناك خطأ مطبعياً في طبعة رحلة العبدري عندما قالت إن الاسم هو (المدية).

الداعي إلى الصدود عنه والإعراض. فقضينا منه إرب الطُّهر، وأدينا دين صلاة الظهر، وحثثنا السير وقد اشتد الحر ونزلنا بعد أن أسود جنح الليل واحمر.

وارتحلنا يوم **الاثنين** قاصدين معطن النَّعيم، الدال باسمه على غاية التنعيم[76] فوصلناه في العصر بعد أعمال السير النعيم، والنعيم معطن على ساحل البحر دل اسمه على مسماه وفاق بمائه العذب غيره من المعاطن وأسماه، ولما وصلنا بات الناس في سعةٍ من الماء والمرعى والحطب، وأخذوا في **استيقاء الدواب** وامتلاء القِرَب واستعدوا للمفازة التي أمامهم، وهي خمسة أيام إلى المنعم[77]، وإذ لا ماء بينهما يعتد به ويقضى منه الأرب إلا، ما يعرض من الآبار الملحة القليلة الجدوى، المحدثة في الأجسام أدواء لا تتداوى منها ولكن تدوى! **وقد وصف أرباب الرِحل هذه المفازة بكثرة السموم** والرياح التي هي أحر من السموم أجارنا الله من جور سمومها وعصمنا من ذوات سمومها بمنه وفضله.

وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا ضُحى بمعطن (الأحمر)[78] ونزلنا بئر (العُويجة)[79] بقصد المبيت وقد نثرت الشمس على الرُّبا ذهب أصيلها الأحمر.

وارتحلنا يوم الأربعاء فمررنا ضحى بالرحبة، وقِلْنا في فلاة رحبة، وحولنا رجلة من البحر داخلة في البر تسمى أبا ثواد[80]، عادة الحجاج فيها اصطياد السمك بالقصب والأعواد،ووصلنا إلى بئر الكُحيلة[81]، فبتنا حواليها تلك الليلة، ولم ينتفع أحد من الحجاج بمائها القليل الأجاج.

---

(76) التنعيم: اسم بئر بوادي هراول بأرض سرت الذي يقع شرقي بلدة سرت، وبه قتل عبد القادر الجبالي سيد روحه عام 1073 من لدن أولاد سليمان والجهمة.

(77) المنعم: مكان شرقي مقطع الكبريت وقد تقدم الحديث عنه.

(78) تقدم التعريف بالأحمر.

(79) عرفنا عن العويجة.

(80) لم أهتد لتحديد الموقع.

(81) بئر بأرض سرت غرب الحدادية، وبهذا سمي المكان، تقع شرقي مدينة سرت، وسماها صاحب الرحلة الناصرية كليلة، وهو تحريف.

وارتحلنا يوم الخميس فظلنا **بالحدادية**[82] وهي بئر كالكحيلة في قلة الماء والجدوى، وإن تكلف البعض / 96 وسقى منها الدواب وما أروى، وبقي الناس يستريحون في واديها. وسارت الإبل تهدي أمامها هواديها، وصلينا الظهر فيها وأخذنا في طي ما حولها من فيافيها.

وكانت تتراءى لنا عن يسار الذاهب شرقاً آثار قصور ضخام وأبنية عظيمة مرصوفة بالحجارة المنحوتة والرخام، بالغ في إتقانها بانيها ودلت على أمر عظيم مبانيها، وذلك كل خرب واندثر ولم يبق منه سوى الأثر، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وبيده سبحانه تصاريف الأمور وأمور الحر والعبد[83].

وأتينا سبخة (مقطع الكبريت)[84] بعد ذلك، فبتنا هنالك، وسميَ هذا الموضع مقطع الكبريت لأن في اعلى السبخة معدنَ الكبريت في آبار وعيون كالمرج يحمل منها كالطين. ومن هناك يحمل **إلى طرابلس** وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة، لأن العرب الذين يحملون بالكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج، إذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبله عن الكراء كبريتاً ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارف هذا المحل ثم يلحقون الركب في المنُعم بالقرب والجلود مملوءة بذلك ويتركونها

---

(82) الحدادية: بئر في أرض الخشة من أرض سرت، ماءها مر صالح وحولها أراض زراعية كثيرة... يظهر أنها منسوبة إلى الحدادة، وهم بطن من لبيد، من بني سليم، كانت منازلهم ببرقة.

(83) حديث ابن الطيب الشرقي عن الآثار التاريخية القديمة ينبغي أن يُستثمر من لدن المهتمين بأمر السياحة، وخاصة من الذين يتتبعون امتداد الرومان في جنوب الحوض المتوسط...

(84) يرسم الزاوي المقطع بالمقطاع، ويتحدث عن وادي المقطاع جنوبي عين الكبريت بأرض سرت، وبالرغم من أنه، أي الزاوي، ردد كثيراً اسم (عين الكبريت) إلاّ أنه لم يخصص لها عنواناً على حده... وهكذا ففي حديثه عن (المرج) وأنها علم على ما كان يسمى عند اليونانيين عام 551 قبل الميلاد بارشي أو باركي: (برقة) وفي حديث عن برقة التي كانت تعرينا لكلمة باركي أو بارشي... قال: وهي أي برقة من عقبة السلوم إلى عين الكبريت غرباء، وفي حديثه عن المنعم قال إنه مكان شرقي فقطاع الكبريت، وحول أن الكبريت علاج للجربى، تراجع مقدمة هذا البحث حيث ذكرت أن مستشفى السجون في عهد الاستعمار الفرنسي كان يعالج الذين يدعون أنهم جربى بالكبريت المحلل في الماء...!

إلى أن تجمد لتتداوى بها **الإبل الجربة** فقد ذكروا أنه لا أنفع منها **لجرب الإبل**، قيل وكذلك جرب الآدمي أيضاً فإنه ينفعه جداً وإذا أرادوا المداواة به حلوه في شيء **من الماء وطلوا** به الجرب فيذهب بإذن الله تعالى الباهر الحكمة، الواسع الرحمة.

وارتحلنا من (مقطع الكبريت) فنزلنا المنعم[85] كيما نتفكه بمائه العذب ونتنعم، والمنعم معطن عظيم مشتمل على أحساء كثيرة لا تكاد تعد في وسط كثبان من الرمل على ساحل البحر، وماؤها عذب طيب فُرات، ولا سيما الآبار التي في حيز الشرق فإنها فاقت في العذوبة، وكلما انحازت إلى الغرب ضعفت حلاوتها، **قدرة الملك القدير** المنفرد بالتدبير، ومن المنعم بتنا **بالمصانع** وهي غدران مصنوعة بين كثبان الرمل من غير صانع.

وارتحلنا نعمل السير الحثيث المديد فوردنا في العصر آبار الجديد[86] وهو معطن آباره منقورة في صفائح الحجارة، ومياهه جاوزت الحد في الحلاوة/ 97 والغزارة، مع سهولة المأخذ وقرب التناول من تلك الأوجه فطفق الناس يسقون ويستقون من مياهها الفايضة الرابية خشية الازدحام في **الأجدابية**[87]. فوصلنا مع الاصفرار إليها.

قال الإمام أبو سالم وفي هذه **الجابية** آثار كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر، وبنيان هايل بالحجر المنحوت وهناك رسم مسجد قديم تهدم، ووجدنا في بعض **حجارته** تاريخ بنيانه منقوش **سنة ثلاثماية**، قال وأخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن بعض المشايخ أن الإمام سحنوناً كان مدرساً بهذا المسجد **ثلاث** سنين.

---

(85) المنعم: مكان شرقي مقطاع الكبريت... وقد سبق التعليق عليه.

(86) بئر جنوب أجدابية بنحو فرسخ وبقربه إلى الجنوب آثار قصر متهدم...

(87) الأجدابية: سبق الحديث عنها عند الكلام حول التعريف ببرقة... فتنبغي العودة إلى ذلك... لكن من المهم أن نشير إلى أن الشرقي الفاسي كان على حق عندما ذكر أن أبا سالم سمى أجدابية بالجابية سهواً إذ لا يوجد اسم جغرافي يحمل اسم الجابية وإنما اسمها الأجدابية كما في القاموس وغيره.

وهذه المدينة برقة المذكورة في كتب الفقه، وقيل: إنها مدينة بالجبل الأخضر في الجانب البحري.

وأستغرب هذا القول[88] من جهاتٍ، **منها ما يذكر** أن بها قبر أحد الصحابيين اللذين ذكر المؤرخون أنهما بها، وهما رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري النجاري لأنه دفن بها لما كان أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد، وزهير بن قيس البلوي، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة **فلقي الروم فقاتل حتى قتل في برقة، ومنها ما يذكر على ألسنة** الفقهاء أن بين برقة وبين كل من مصر وإفريقية نحو **الشهر** وهذا تشاركها فيه الأجدابية أيضاً لأن بينها وبين المدينة التي بالجبل الأخضر نحواً من خمسة، أيام **ومنها أن التي** في الجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن المخصبة والمزارع الكثيرة، والغياض الملتفة من أنواع الأشجار بخلاف **الأجدابية** فإنها في صحراء من الأرض والله تعالى أعلم بغيبه.

وقد سبق لنا أن مسمى برقة **على التعيين** عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك، وفيها رسوم أبنيةٍ كثيرةٍ وأن إطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة، وهذا يقوى أن **مدينة برقة هي الأجدابية** وذلك المسجد الذي ذكره أبو سالم هو باق إلى الآن من أشهر المعالم وبإزائه قبر محوط عليه بالحجر يزار يقال لصاحبه **سيدي يونس**، وهو من عرب الفواخر، وقد ذكره أبو سالم/ 98 أيضاً، ومرت عبارتُهُ في تسمية هذا المكان **بالجابية** وهو سهو لأنه لا يعرف في **برقة أرض** ولا مدينة بهذا الاسم، وإنما اسمها الأجدابية كما في **القاموس وغيره** والله أعلم. وفيما بين الجديدة والأجدابية آثار أبنية عظيمة وقواعد مدن هايلة جسيمة مبنية بالحجارة المنحوتة المحكمة الصنعة والإتقان، وذلك كلُّه صار خراباً بعد عظيم العمران، فسبحان المنفرد بالبقاء بعد فناء الخلايق سبحان!

---

(88) الكلام للشرقي الفاسي، وهو يؤكد أن الرجل ليس إمّعةً ينقلُ ما قيل دون تمحيص ولا تدقيق... وهو يعتمد فيما يعقب به على المصادر والمراجع حتى لا يدع مجالاً للمتشككين..

وارتحلنا من الأجدابية وظلنا سايرين في أرض هشة كثيرة الغيران، مملوءة بحجر اليرابيع والفيران، لا يكاد يستقيم فيها سير البغال ولا البعران، ووصلنا في العصر إلى أرض سماها لنا أهلها (الشبان)[89] فتلقانا أهلها الكهول والشبان، وطلبوا منا المبيت لديهم بقصد التسويق، وأقاموا سوقاً حافلةً مملوءةً بالغنم والإبل وغير ذلك من الألبان والسويق، وأعرابُ تلك الأرض يعرفون بأهل **الزاوية**، وهم ناس وجوهم طلقة غير زاوية، وآثار الرفاهية بادية عليهم غير واهية، غير أنهم يشكون جور الغارات من الأعراب والعمال يزعمون أنهم لا يحصل لهم، لأجل ذلك، تمام الأعمال، أخمد الله نيران الظالمين، وأذهب الجور من العالمين آمين.

وارتحلنا وقد نظمتنا الفيافي في سلوكها[90]، وأوصلتنا فيما بعد الظهرين معطن سلوكها وسُلوُك: معطن كالأجدابية في الماء ونقر الآبار في الحجارة، غير أن ماء سلوك أشد عذوبة وغزارة، فما رأينا أعذب منها ولا أغزر ولا أشد حلاوة وأكثر، بحيث تكفي الأركاب العديدة، ولا تتأثر، مياهها الوافرة المديدة، وأخذ الناس يستقون من كل بئر، حتى مضى من الليل جزء كبير وكان الناس ينتظرون أعراب تلك الأرض، ليقضوا من إقامة **السوق** معه نافلة السفر والفرض، فلم يظهر لهم أثر، وكنا وجهنا إليهم من يخبرهم فما وقف آخر عليه ولا عليهم ولا عثر، وأخبرنا بأنه مرض في الطريق، فبقي لا إلى هؤلاء الفريق، ولا إلى هؤلاء الفريق، وهذا الورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر، وتسمى برقة الحمراء وهو بمرأى من الجبل الأخضر، وبإزائه آثار أبنية عظيمة وإن كانت أبنية الأجدابية أكثر، والعادة أن **أهل ابن غازي** يتلقون/ 99 الركب بأنواع الفواكه والخضر، وكأنهم لم يصلهم أن الركب هناك قد حضر، مع كون الرسول المبعوث إليهم

---

(89) الشبان: يبدو أن الشيخ الزاوي رحمه الله لم يقف على هذا الموقع الجغرافي. ولهذا ليس له ذكر في معجمه.

(90) سلف الحديث عن سلوك أو سلوة.. هذا ويفهم من الرحلة أن الحجاج كانوا يبعثون بأفراد من القافلة ليخبروا بموعد الوصول من أجل تسهيل الاتصال... قال: وهذا المورد (سلوك) آخر برقة الحقيقية كما مر...

وإلى الأعراب **عاقه المرض** عن استيفاء المقصود منهم والغرض.

وابن غازي: مرسى حسنة **بسفح الجبل الأخضر** بينها وبين سلوك مسافة يوم، وفيها **عامل وعسكر لصاحب** طرابلس. وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والوَدَك من الجبل الأخضر الذي لا أخصبت منه ولا أكثر إداماً بحيث يكتفي منها أهل تلك النواحي **وتحمل السفن منه** أضعافاً إلى طرابلس وجربة، وما بإزائهما من البلدان، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم مع رخص الأسعار الرخصَ الخارج الحد: بحيث تشتري القناطير من ذلك بالثمن التافه من بز أو عروض أوغير ذلك، وغرائب هذا الجبل وغفلة أهله وجهلهم ورخص الإدام فيه مما هو مشهور معلوم، ومع ذلك لا يكاد أحد يستوفيه. وقد ذكر بعضّ هاتيك الغرائب أبو سالم رحمة الله.

وارتحلنا متوجهين لدخول مفازة **السروال**، الموصوفة بشدة الأهوال، فكان لطف الله حاضراً في جميع الأحوال، وكنت قلت أبياتاً ضلّت عني مبانيها، وإن كان لطف الله وتعويده الخير لعبادة في جميع المواطن وسؤاله تعالى أن يكمل علينا في هذا المحل هو المقصود من معانيها، فظلنا في فم السروال، ثم دخلناه في قرب الزوال والناس في وجل عظيم مما يعتادون من شدة الحر وكثرة الأوام، إذ لا ماء في مفازته الطويلة **مسيرة سبعة أيام**، فلم نر باساً والحمد لله، بل سرنا في برودةٍ تامةٍ ونسيم طيب من فضل الله تعالى وبركة رسولِ الله ﷺ وأنجى ببركته هذا الوفد من جميع الآفات وسلم. وبتنا **بابن قردان** والليل قد ألم.

وارتحلنا مجدين السير **للمزرب**، لعلنا نجد به من الماء ما فيه بعض الإرْب، وهو واد توجدُ في جوانبه غدران إذا قرب العهد بالمطر، فوصلناه في العصر، وما فرغ عهده بالعهاد فضلاً عن كونه قطر وبتنا في فلاة بهاء.

وارتحلنا قاصدين وادي سمالوس[91] لعلنا نجد به شيئاً من الماء، فوصلناه

(91) سالموس: مكان جنوبي الجبل الأخضر، ذكره أبو سالم العياشي أيضاً، وما يزال معروفاً بهذا الاسم.

بعد ارتفاع النهار فألفيناه جافاً وجوانبه تنهال رمالها إليه وتنهار /100، وقلنا بموضع يسمى **الشبيكة** حتى طبنا بصلاة الظهر فيها نفساً، وبتناً بموضع تسمى الففسا؟ وارتحلنا فسرنا **بالمخيلي**[92] أو (نخيل) أو (مخيليف) كما سمعنا كلاً منها، ولم نجد من نقلده في تلك المعارف، وسرنا فبتنا يسار الصلب الشارف وهو اسم رابيةٍ، على تلك الطرقات رابية.

وارتحلنا **يوم الأحد** فسرنا في **مطر غزير**، روى من غدرانه كل أحد فبلغنا معطن **التميمي**[93] قبل الزوال وهو معطن عظيم تزان بسوقه الحافلة الأحوال، فأجتمع أهل تلك النواحي من كل فج. وجاء **أهل دُرنة** وغيرهم لتسويق الحج، وقامت هنالك الأسواق، لا يرى الحجاج مثلها في جميع الفواكه والخضر وأنواع الآلاء وضروب النعم، ولا يجتمع في غيرها ما يجتمع فيها من السمن والإدام والتمر والشعير والدقيق والغنم والنعم.

ودَرْنة[94] **مدينة على ساحل** البحر بها مرسى بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيه.

وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عّمَرها أهل **الأندلس قرب الأربعين والألف**

---

(92) المخيلي أو نخيل أو مخيليف كما سمعها وأداها بأمانة: قصر قديم في الجنوب من الجبل الأخضر وشرقي بن غازي بنحو 232 ك.م. وهو من أكبر القصور التي تهدمت وبقيت آثارها وبقربه مسجد تهدم وبقيت منارته... مر به العياشي عام 1072 وهو على هذه الصفة، وذكره اليعقوبي، وبقربه قبر الشيخ عمران، شيخ ركب الحجاج المغربي توفي برمضان عام 1073... معجم البلدان الليبية.

(93) التميمي: واد على ساحل البحر شرقي بني غازي بنحو 351 ك.م. وبه أحساء ماء عذب.

(94) مدينة من مدن برقة المشهورة، أقيمت على جزء من مدينة درنيس المدنية **اليونانية** القديمة التي كانت عاصمة لولاية ليبيا الشرقية (مرماريكا) وأبنيتها أكثرها على الطراز العربي القديم...

ويبدو من خلال النص أن الذين عمروها هم الأندلسيون الذين نزحوا إليها، وهذا ما يفهم أيضاً من أبي سالم العياشي ويجري بوسطها نهر ينحدر من الجبل الأخضر من عين بو منصور ولأهلها نشاط في التجارة يقدمون فيه كل سكان برقة.. وفيها كثير من قبور الصحابة: قبر زهير البلوي... استشهد في معركة مع الروم سنة 71. وفي سنة 1805 أيام يوسف باشا القرميلي، احتلها الأمريكان على ما قلناه في التاريخ الدبوماسي للمغرب... انظر الزاوي، معجم البلدان الليبية، وانظر التازي رحلة الوزير الإسحاقي.. والتاريخ الدبلوماسي للمغرب.

ولم يزلوا بها إلى أن بطروا، **فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير** طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعه قتل فيها مؤمنون من أشرافهم وهي الآن في طاعته وفيها عامله.

ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الواردة من الإسكندرية **ومن طرابلس ومن** بر الروم **ولا سيما جزيرة كَنْدية**[95] فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر **لأنها في مقابلتها**، والمعاش في هذه المدينة متيسر كثيراً لجمعها بين البادية والحاضرة، وأقمنا في معطن التميمي يومين، لينال الناس من مطالبهم ويقضوا من مآربهم ما فيه قرة العين، ويتوسعون في استقاء أسقيتهم من كل عين.

وارتحلنا منه يوم الثلاثاء في الفجر فظلنا سائرين على **ساحل البحر** حتى زالت الغزالة، ووصلنا إلى عين الغزالة[96]، وهي عيون من الماء العذب، على ملوحة فيه تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها وليس في **برقة** كِلّها ماء يجري إلا هذا، فاستقى الناس دوابهم من تلك العين وظلوا تحت ظلال أشجار في جوانبها حتى أقرّوا بصلاة الظهرين العين.

وسرنا في سبخة مستطيلة بين جبلين، ثم خرجنا لأرض طيبة، ذات محارث مخصبة/ 101 ومزارع متصلة بسواقي طيبة، ومررنا في العشية عن يسار الطريق ببيت منحوت في الحجر الصلد، طولها عشرون ذراعاً في مثلها، وبداخله بيت آخر نحو نصفه، وفيه غرف صغار وكأنها **مخازن**، وكل ذلك منقور في الحجر الصلب نقراً عجيباً مربعاً كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت، وله باب مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة واسعة منقورةً في الحجر أيضاً،

---

(95) القصد إلى كنية Canadie المدينة والمرسى الرئيسي لجزيرة أقريطش (كريت) أسسه العرب في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي... د. التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية، طبعة ثانية، الإيسيسكو 305.

(96) عين الغزالة: عين ماء فيها ملوحة قليلة، تصب من سفح الجبل الأخضر في بحيرة كبيرة تحتها، تتصل بالبحر، ينبت فيها الغاب (القصب الفارسي) وبعض أنواع النبات المائي... وهذا الوصف من الرحلة الناصرية... وقريب منه نقرأه عن ابن الطيب الشرقي...

فتعجبنا من بديع صنعتها وإتقانها ورائع حسنها وإحسانها، وتدبرنا قوله سبحانه﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وجرى على ألسنة الحجاج تسميته بقصر فرعون[97] ولم ندر ما أصل ذلك ولا موجب إحداثه هنالك.

وقد أطال في وصفه العبدري وأجاد وأومأ إليه الشيخ أبو سالم، ومررنا قبله ببيت أخر متصلٍ بالأرض قريب من الجبل يسميه الحجاج بالحمام، ولم يذكره أحد من أرباب الرِحَل غير أن العبدري ذكر أنه مر في إيابه ببيت آخر يماثل الأول، وأبدع في وصفه أيضاً وذكر أن له مساطبَ ومراحيض ومطابخ وغير ذلك، فلعلَه مر بهذا الذي مررنا به أولاً، والله سبحانه أعلم وله الأمر من قبل ومن بعد.

وظعنا يوم الأربعاء تاسع وعشرين من رمضان فظلنا بالمدور[98] وهو مأجل معدّ للماء يتألف فيها ماء المطر ولا يتغور. وسرنا فوصلنا في العصر للشجرات السبع وهي أنواع مختلطة من الشجر كالرمان والخروب وغير ذلك في وسط حفير منقور في الحجر، وتجاوزناها حتى أقبلت الظلماء، وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الخميس منعطفين لناحية البحر لنرد منهل الدفنة[99] ونقلد من جواهر مائة كلَّ نحر، فوصلنا قبل الغروب، وانزاحت عنا بتحصيله الكروب، وهو منهل قرب البحر مشتمل على أحساء كثيرةٍ سهلة التناول، قريبة المأخذ نحو القامة، وكل من أراد إحداث بئر حفرها فينبع معها الماء لسريانه في ذلك الساحل كله، وماؤه من أطيب المياه وأحلاها وأعذبها وأحسنها وأعلاها، وقد ملأ الحجاج منه أسقيتهم ومتعوا فيه دوابهم وأوعيتهم.

وورد علينا لهذا المورد طوائف من الأعراب بالسمن والغنم والإبل

---

(97) يسميه الوزير الإسحاقي حبس فرعون، انظر رحلته صفحة 168 تعليق 5.

(98) هذا المدور هو غير المدور الذي عرف به الزاوي وقال عنه: إنه جبل صغير مستدير بأرض النواحي الأربعة، انظر ص 309 وص331.

(99) قرية بالجبل الأخضر، ولعل للاسم صلة بالدفنية من أراضي برقة. انظر معجم البلدان الليبية. ص 133.

وجاؤونا بتمرٍ سوَى [100] وأخذ الناس منه كفايتهم بأرخص سعر، وذلك فضل من الله / 102 ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.

وتمر سوى من أحسن التمار لم نر تمراً يشبه تمر **سجلماسة** ودرعة من يوم خروجنا إلا هذا لوناً وطعماً. وهذا ألطف منه وأنقى، لأن **عادتهم أنهم** لا يحملونه إلا في **قفافٍ** من العزق[101]، كل واحدة قريباً من نصف قنطار ويجعلوناه **معاليق** تعلق بها على أقتاب الإبل، فيحمل الجمل منها عشراً أو أكثراً وأقل على حسب صِغَرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها وتلك **صنعة عجيبة** يبقى التمر لأجلها على حاله نظيفاً ولا يحتاج مشتريه لغرارة، **وليت أهلَ مغربنا يفعلون مثل ذلك!**.

وقد ورد علينا لهذا المنهل **قوافل من الإبل** بهذا **التمر**، حتى يَنعم بشرائِه المأمور وذو الأمر. وأصبحنا في الدار يوم **الجمعة مهلّ شوال ريثما** أصلحنا الهيئات والأحوال، وارتحنا، متأهبين **لإقامة سنة العيد**، فمررنا غير بعيد، وكان **شيخ الركب طلب مني أن** أنوي الصلاة والخطابة، فرأيت أن أملأ بالموعظة، لاحتياجه إليها[102]، وطابَه، بل رأينا غالب هؤلاء القوم محتاجين للموعظة واللوم، والإيقاظ من الغفلة التي استولت على قلوبهم والنوم، ولا يمكن التوصل لذلك **في غير هذا اليوم**، مع أن الظاهر من فحوى كلام **الفقهاء أنه لا محذور** في إيقاعها للمسافر[103] بل ربما يُستشعر من أفعال السلف وأقوالهم

---

(100) سوى أو سيوة تقع اليوم ضمن الأراضي المصرية وقد زرناها مراراً صحبة أعضاء مجمع اللغة العربية... وحديث الشرقي الفاسي عن تمر سيوة وعن مقارنتها بتمور المغرب وخاصة تمر سلجماسة ودرعة يدل على أن الرجل له مواقفه الخاصة وبما يتصل بإنتاج المنطقة، بل وفيما يتصل بتعليبها وتغليفها ونقلها... وحبذا إشادته بالصنعة العجيبة التي تميزت بها سيوة والتي تحتفظ بالتمور كما هي نظيفة.. ولم يشعر بمركب نقصٍ وهو يتمنى أن يهتدي أهل مغربنا بما ألهم الله إليه أهل مشرقنا.

(101) هكذا في النص ولعله تحريف لكلمة السقف.

(102) لا يخفى مايحمله هذا التعبير من غُمز لشيخ الركب الذي لم يكن ـ دائماً ـ على ما يتوقعه الرحالة!!

(103) على عادة الرحالة لابد أن نجد نصيباً من رحلاتهم يتضمن فتاوى فقهية جديرة بالمراجعة والمتابعة.

استحبابهم، **والقول بكراهتها** عندي وإن اختاره جماعة من الفقهاء ومال الله **شيخنا ابن ناصر في رحلته من الأمور البعيدة** والله أعلم، وبسط القول في هذا مما يراجع بضميمة الفروع إلى الأصول، وفي الأبواب والفصول.

وبعدما فرغنا من الصلاة خطبت لهم خطبةً حافلة لما يتعلق بالقواعد، محذرة مما ألفه الناس من الغيبة والنميمة وغير ذلك من العوائد، مشتملة على الانتداب للحج، وذكر فضائله، والأحاديث التي وردت عن النبي عليه والسلام في فروضه ونوافله، مع **قلة الألفاظ وجزاله** المعاني السهلة للحفاظ، وكنت أثبتها **في الرحلة الضائعة** لما حَوت من المعاني الرائعة والفصول الجامعة، تقبلها الله على الإضاعة، وجعلها لنا في الآخرة أنفع بضاعة، آمين[104].

ولما انصرفنا من الصلاة **انحاز كل فريق** لفريقه، وأظهر في طريقه حسن طريقه، وأحضروا من أنواع الأطعمة / 103 المختلفة الألوان، ما لا يجمعه إيوان، في مثل ذلك الأوان مما لا يتفق في الأمصار والحواضر **وأوسعوا من ذلك** كل حاضر، تقبل الله الأعمال[105] وبلغ الأمال بمنه وكرمه.

وبعدما **استرحنا في ذلك** المكان أعملنا السير فبتنا **في فضاء من أرض بطنان**[106]، **وكان يقربنا قبر يزار يقال لصاحبه سيدي عزيز**، وهو من عرب **سمالوس** تأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كومين هناك **ويزعمون** أن من مشوا بها هناك لا تصيبهم آفة في تلك السنة، وربما اقتدى بهم بعض الحجاج فيفعلون مثل فعلهم!

وظعنّا **يوم السبت** فأتينا العقبة الكبيرة[107] في وقت الظهيرة، وهي عقبة

---

(104) يذكر الرحالة مرةً أخرى في القصة التي يشعر بها وهو يذكر سطو اللصوص على مذكراته...

(105) يتحدث الرحالة عن حفل كبير أقامه شيخ الركب على شرف أعيان الحجاج وعلمائهم وخاصتهم.

(106) البطنان: اسم للأرض الواقعة بين كنبوت، وأم الرزم من أراضي برقة الشرقية على ما سبق أن قلنا.

(107) العقبة الكبيرة هي بالذات عقبة السلوم وينقل الزاوي أن هذا الموقع هو الحد الطبيعي بين البلاد المصرية وبلاد برقة كما أسلفنا. معجم البلدان الليبية. ص328.

مشرفة على البحر وعرة، ذات حجارة عظيمة ترجل فيها الناس كلهم ولحقهم فيها تعبهم وكلّهم، وبقينا تحت العقبة على ساحل البحر، ريثما استرحنا وصلينا الظهر والعصر، وسرنا فوصلنا في المغرب منهل المقرب، ولم يصل آخر الركب حتى غاب الشفق وغرب، فتفرف الناس بين هاتيك التلال يستقون من مائه العذب الطيب الزلال، ومنه بتنا عن يمين الحشومي في موضع يقال له خور البقر، وربما سماه بالعش بعضٌ من بحث عن اسمه ونقر. . .

النص الكامل بعد عودته. . .

/ 241 وارتحلنا منه (معطن المقرب) يوم الأثنين (20 رجب 1140) فأتينا العقبة وبقينا تحتها حتى أفطرنا واسترحنا وارتقينا عليها، وهي أطول من عقبة التشريق وأشد منها في الأوعار المنسوبة إليها، ومررنا ببطومة، واسترحنا في البويبات، وصلينا بها الظهر. وتركنا القلاليب بحرياً، ونزلنا أرضاً تسمى الظهرة[108] بعد العصر فبتنا بها على غير ماء، وارتحلنا يوم الثلاثاء فمررنا صباحاً بكدوة الحمارة[109]، وتركنا وشكة[110] الطامش يميناً، ووصلنا قبر الشيخ عزيز قبل الظهر، فنزلنا لزيارته والاستراحة حول دارته، وبقينا أمامه حتى صلينا الظهر، ووصلنا الخشة[111] عصراً فصلينا بها العصر، ولم نجد بآبارها ماءً وتجاوزناها بقليل وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الأربعاء، فمررنا بالبُحيرة واسترحنا ساعة بالغرابات ومررنا بالعريض، وهو قصر مهدم، ووصلنا غدير الريفي الظهر، فألفيناه مملوءاً بالماء كأنه نهر، فاستغنينا بمائه عن المرور بمعطن الرقبة، وتركناها وبتنا في هذا

---

(108) توجد عدة مواقع في ليبيا تحمل اسم الظهرة، فانظر معجم البلدان الليبية، ص 223.

(109) الكدوة: ربوة جبلية عالية مغطاة بطبقة من التراب، ويبدو ـ كما قال الزاوي ـ أن كلمة الكدوة محرفة عن الكدْية. . . والحمارة تعبير مغربي عن المهنة التي تختص بنقل المسافرين. . .

(110) الوشكة في الدارجة الليبية اسم لفسائل النخل الصّغار المجتمعة في أوانٍ واحد وتترك بدون تشذيب.

(111) الخشبة: اسم مكان بالبادية، وبها بئر الحدادية فيها شيء من الملوحة والمرارة.

الغدير، الذي جل في إزهاره، وإزهاره وخصبه عن النظير، وأخذ الناس يستقون منه ويسقون دوابهم ويقضون أرابهم، ووردت **علينا طوائف من الأعراب بالسَّمن والتمر والغنم وغير ذلك**.

وارتحلنا منذ يوم الخميس، **فتركنا طريق الحج المألوفة**، وريضنا بسقيفة أبي الحامض للإفطار والاستراحة، ثم مررنا بسقيفة العدم على غير ماء. وارتحلنا يوم السبت وريضنا **للإفطار بسقيفة** رؤوس السد وصلينا الظهر بوادي المعترض، وأتينا في العصر على غدير ماء زاد على الحق المفترض، فاستقينا من مائه، وأدينا من الصلاة ما لا بد من أدائه، وألفينا ما حوله من الأرضين مخضرة مخضلة، ذات أزهار يانعة ونباتات مظلة، وبتنا بين **العنبر وعين الغزالة**[112] **على غير ماء**.

وارتحلنا يوم الأحد/ 242 فسرنا بأرض **مخضرة بالأزهار** كثيرة الإنباتات والإزهار، ذات غدران متلاطمة تلاطم البحار والأنهار، وريضنا بوادي الرحيمة للإفطار، وألفيناه مملوءاً بماء الأمطار، كثير الخصب والنباتات، حسن المراعي والإنبات، ومررنا بوادي الجداري فألفيناه بحراً بماء المطر قد فاض على جوانبه فيضاً وصلينا الظهر بهيشة[113] الطنفسَة، واسترحنا ريثما **ردد كل واحد نفسه**، ونزلنا قباله**التميمي**[114] **بالموضع المعروف بكبكان** لأنا ألفينا بجوانبه من الخصب والكلأ ومياه الأمطار، وغير ذلك من الأوطار، ما فيه غنية لجميع الركبان، فأغناها ذلك عن **التميمي** ومائه والمرور بها مائه، وأقمنا بهذا الموضع بقية الأحد.

ويوم الاثنين، وردت علينا هناك ملاقاة **دَرْنة**، وقامت بينهم وبين الحجاج سوق عظيمة اجتمع لها أهل درنه وغيرهم من أعراب تلك النواحي، وجلبوا

---

(112) عين الغزالة: تقدم الحديث عنها والرحالة في طريقه إلى الحجاز فليراجع... وأنظر معجم البلدان الليبية. ص244.

(113) تقدم الحديث عن الهيشة...

(114) انظر التعليق الماضي... ولم نجد مرجعاً للاسم كبكبان.

أنواع المطاعم والفواكه والخضر والشعير والسمن والعسل **وأنواع الكعك** والخبز والمقروط وغير ذلك.

وورد علينا جماعة من طلبتها فيهم المحبُ الكبير، الجدير بالتعظيم والتكبير، الفقيه الأديب البارع الأنير أبو عبد الله سيدي محمد الأصرم القروي المذكور **فيمن لقيناه بطرابلس**، تقبل الله دعاءنا في الاجتماع به، ولجميع بعض ما يسنح من أدب، وسررنا بملاقاته كثيراً وأكرمناه، وتناولنا **معه مسائل علمية**، وتعاطينا أموراً أدبية، وبنفس ما فرغنا من السلام وتعاطينا مناولة الكلام، أنشدني:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدَما يظَّنان كل الظن أن لا تلاقيا!

وسألته: مَن أخبره عن هذا المحال، الذي نزل به خليله وحل؟ فأنشدني:

من جاء يسأل عن داره؟ قلت له: يمشي ويستنشق!

ثم ذكرني:

فسِرْ بنا في ذمام الليلِ معتسفاً فنفحة الطيبِ تهدينا إلى الحللِ!!

ثم أنجرَّ بنا الكلام إلى **الحظ وتهيئته للجهال** دون الأَعلام، فأنشدني لنفسه:

قالوا: تعلمْ فإن العلم ينفع من زمن ضاقت به الحيل
فمذ تعلمت، قال الحظ مبتدرا زَخ، إنني عنك بالجهال مشتغل!
لذاك تلحظني للجهل متبعاً عسى لما هم به من ثروةٍ أصِلُ!!/ 243

وأنشدني للزمخشري عفا الله عنه:

وقائلة أراك بغير مال وأنت مهذب عَلَم إمام
فقلت لأن مالاً قلب لام ولم تدخل على الأعلام لام!

وأنشدني لابن نباته:

وقـائـلـة أرى الأيـام تـعـطـي لـئـام الـنـاس مـن رزق خـبـيـث
وتـمـنـع كـلَّ ذي عَـقـل ولـبّ فقلت لها: خذي أصل الحديث
رأت كـل الـمـكـاسـب مـن حـرامٍ فجاءت بالخبيث على الخبيث

وذكرني في قصيدة الإمام القاضي أبي الحسن الجرجاني المشهورة التي أولها:

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما رأَوْا رجُلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمُ هان عندهم ومن أكرمته عزةُ النفس أُكرما
وماكلُّ برقٍ لاح لي يستفزني ولا كلُّ من لاقيت أَرضاه منعما
وما زلت منحازاً بعرضيَ جانباً عن الذم، أعتدُّ الصيانَةَ مغنما
إذا قيل: هذا منهل، قلت قد أرى ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظما!
وإني إذا مافاتني الحظ لم أبت أُقلِّبُ كفي إثْرَهُ متندما
ولكنه إن جاءَ عفواً قبلته وإن مال لم أُتبِعْهُ هلاً وليتما
وأقبض خطوي عن حظوظ قريبة إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً وإن أتلقي بالمديح مذمما
أنهنهُها عن بعض مالا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أولما؟
ولم اقض حق العلم إن كنت كلما بدا طمع صيرته ليَ سلَّما
ولم أَبتذلْ في خدمة العلم مهجتي لأخْدِمَ من لاقيت لكن لأخْدَما،
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة إذن فاتباعُ الجهل قد كان آحزما
فإن قلت جَدّ العلم كافٍ، فإنما كبا حين لم يُحْرَسْ حماه، وأُسلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوهُ فهانوا، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما!

وهي قصيدة بديعة جمعت مستحسن ما ينبغي للعلماء ارتكابه وبديعه.

وقد قال في حقها الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار): ولقد أحسن صاحبها الإحسان، كأنما نسجت في طُرَرٍ حسان، ثم ذكر من هذا المعنى ما لا مزيد عليه، فليراجعه فيه من احتاج إليه.

وتناولنا الكلام / 244 على **طرابلس ولغاتها** السابقة فيها[115]، فأنشدني قول التجاني التونسي:

سَرَى فرسي في سيره، ولو انه خليٌ من الأوزار سار ولم يرسُ
سعى سعي طماح لأبعد غاية فكانت له دار المقام طرابلس

وسألته عن درنا وأحوالها وكيف هو فيها مع صروف الدهر وأهوالها فأنشدني لنفسه:

قالوا: قُرَيَّةُ درنة لا نظيرَ لها وما دروا أنها اشتقت من الدّرن!
مَن حل ساحتها لم يخل عن كدر كأنما ماؤها يجري على الحَزَن

وألفى كتابنا (شرح نظم ابن المرحل) المذكور غير مرة، أخرجناه لمراجعة أمور في تلك الحرة، **فتناول بعض مسائله واستغرب في الداعي إليه في هته الأزمان، وسائله،** وأعجب مِن تعاطيه مع قلة أسبابه ووسائله، **واستحسنه كل الاستحسان** وشهد له بالإتقان والإحسان، وتمنى أن لو وجد فسحة من الزمان ليتحلى بفرائد فوائده المزرية بفلائد الجُمان، **وكتب عليه تقريظاً حسنا** أجاد فيه ما شاء، وأبدع فيه الإنشاد والإنشاء، مع ضيق الوقت وشغل البال، وتزاحم الأشغال وهيجان البلبال، ومطاوعة البديهة له والارتجال، بما يعجز روية الفحول من الرجال ولم يتيسر نقله الآن.

وارتحلنامن (كبكبان) يوم الثلاثاء ففارقنا **أبا عبد الله الأصرم** ونار الفراق في القلوب تضرم، وسرنا فريضنا بالفّرج **للإفطار**، ومررنا بعلب الشارف، وقصر الغزيات[116]، وتركنا غدير بوهندي يميناً وأتينا غدير الركب بين الظهرين فألفيناه

---

(115) الإشارة إلى ما مضى من حديث عن ضبط كلمة طرابلس.

(116) لم نهتد لتحديد هذه المواقع الجغرافية هنا ولم ترد في المعجم.

بحراً زاخراً من مياه الأمطار، وبه صلينا الظهر والعصر، واستعملنا بعض النوافل بعد القصر، وألفينا حوله من زهر الربيع ما أزرى بوشي صنعاء البديع، وحيث ألفينا هذا الغدير المتبحر في أول مفازة السروال[117]، الموصوفة بكثرة الأهوال، قال في ذلك محبنا وأخونا الفقيه البركة الأديب البارع الفاضل نخبه الأفاضل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، حفظه الله.

دخلنا السروالَ في سبعةٍ حسوم فعادت علينا سعودا
تولَّى الإله سقايتنا من الغيث حل مكانا بعيدا / 245
سُقينا به من مياه السما بأرض تعز المياه وجودا
فسبحانه فاعلاً ما يشاء يعطي ويمنع عدلا وجودا

فقلت في ذلك، سالكا بعض تلك المسالك:

وقالوا إذا ما أتيت لسروا ل، فاحذر هنالك حراً شديدا،
وإياك والماء فاملأ به الأوانيَ واعزم على أن تزيدا
فإن مفازته صعبة بشدتها، كم أشابت وليدا
وما علموا أن فضل الإله ليس يزال بسيطاً مديدا
يغيث الخلائق إن عطشوا بغيثٍ غزيرٍ يَعم العبيدا
وكم من غديرٍ يغادر ما يروي ركاباً ويكفي جنودا!
فسبحانه من جوادٍ كريم يعم الخلائق فضلا وجودا

وتجاوزنا غدير الركب وبتنا في موضوع يقال له فرع بريبر، وارتحلنا منه يوم الأربعاء فمررنا بوادي العس، ووصلنا للمخيلي[118] قرب الزوال، فنزلنا به ريثما نصلح الأحوال، وألفيناه فايضاً بمياه الأمطار فأخذ لناسُ يقضون بالاستقاء

(117) سلف الحديث عن السروال... والرحالة متجهٌ نحو الشرق.

(118) المخيلي... سبق الحديث عنه.

منه الأوطار، وبقي غالب الركب هناك للاستراحة حتى صلى الظهرين وطار، وسرنا فبتنا بالغفسا[119] وقدطابَ: كلّ واحد منا نفسا.

وارتحنا يوم الخميس، فريضنا بموضع يسمى **الحمامة** لا فاختة فيه ولا حمامة! وبتنا مشرفين على وادي الشيكة في فلاةٍ لا تصطاد فيها شبيكة.

وارتحلنا فمررنا بالقليعات وريضنا بوادي **مَمالوس**[120]، وألفيناهُ جافاً من الماء عاريا حتى من نبات البمهاء، وكان غالب الناس احتاج إلى السقي فحثثنا السير متوجهين إلى **المزرب** لعلنا أن نجد فيه ماء مزرب، فلقينا أعرابيان على جملين، وأخبرانا بأن لا ماء فيه أصلاً ولا بين تلك الجبلين، وإن الأرض التي حواليه، لم تمطر فيجتمع الماء إليه، وأخبرانا أنهما مرا ببئر ينحرف عن الطريق، مملوءةٍ بماء الأمطار تسمى **بير اقللود**[121] فتوجه الناس إليه لكثرة ما كان من العطاش فيهم لعلَّه يكفيهم، وتركوا الطريق ذات اليسار وجدوا إليه التسيار، فلما وصلنا لتلك البير، لم يحصل لنا بها نفع كبير، بل وجدنا ما يملأ نحو **الثماني عشرة** قِرْبة، فاز بها من حصلت له من الثروة قربه، بعد مشقة فادحة، وبقي الناس من العطش في حالة فاضحة / 246 وحصل لهم في الانحراف لهذه البئر تعب كبير، لحروشة تلك الأرض، وبعدها عن صوب الطريق، بعد أجازوا الفرض، وسرنا حتى وصلنا موضعاً يسمى **اسطاطة قللود**[122]، ونزلنا به في وقت العصر، لاجتماع الناس من التفريق الذي حصل لهم عند الخروج إلى البئر من الطريق، وبتنا هنالك على غير ماء.

وارتحلنا يوم السبت (ثاني شعبان)، فذكر لنا بعض الأعراب أن غدير

---

(119) لم نهتد لتحديد الغفساء.

(120) سبق التعريف به.

(121) بئر اقللود كذلك لم نهتد إلى معرفة موقعها.

(122) أسطاطة قللودة، كذلك لم نقف على من تحدث عنها، وهذه مزية من مزايا الرحلة حيث إنها احتوت على أسماء لمواقع جغرافية غريبة.

الحروبة[123] فائض بماء المطر، وأن فيه فوق ما يوفي بالوطر، فانحرفنا إليه وتركنا صوب الطريق وقصدنا الورود عليه فوصلناه بعد ارتفاع النهار، وقد فاض كأكبر الأنهار، فنزلنا أمامه للإفطار وقضاء الأوطار واستقينا من مائه العذب الزلال، وتنعمنا بالماء والمرعى بين تلك التلال، وسرنا منه، وقد زالت الشمس، وأدينا أول الخمس، فمررنا **بالحويجة وأم الغزلان والقبر** وكلها أودية معروفة عند أهل تلك السير، وبتنا بالعقبة على غير ماء.

وارتحلنا يوم الأحد، فأتينا وادياً يسمى رأس **ابن قردان** فألفيناه منعما بالربيع والأزهار والغدران، ثم مررنا بوادي المعقور، وفي وسطه غدير يعرف بغدير قصر الصفا، فألفيناه مملوءاً بماء حَازَ العذوبة والصفا، وحواليه من أنواع الزهر ما أخجل الزهر، فبقينا به حتى صلينا الظهر، ومررنا بعد ذلك بموضع يسمى (حنوة رفاد)، وألفينا فيها نجعاً عظيماً من أعراب ذلك الواد، وتجاوزناه وبتنا على غير ماء.

وارتحلنا يوم الاثنين، فمررنا ضحى بالرحيبات **وريضنا بالباب**.

وتاه **الخبير عن عقبة الذيبة، وحارت الألباب** وتعبت المراحل التي كانت في سَوْرة؟ تعباً جاوز الحد، وتورمت **أخفافها** وأرجل الرجالة، بل لم يسلم من **المشقة أحد**. ونزلنا من (السروال) بعد الزوال، وسرنا جادين في السلوك إلى معطن (سلوك) فنزلناه في الغروب بعد مقاساة كروب، ولم ينزله **آخر الركب** حتى مضى جزء معتبر من الليل بعد مقاساة أشد الكرب، وأصبحنا به يوم الثلاثاء حتى آن الزوال واستقى الناس من مائه الكثير المتوال. وارتحلنا منه فمررنا ببئر تسمى **الزحيحيف** قريباً من ذلك، وصلينا العصر هنالك، وسرنا حتى اصفرت الشموس، ونزلنا لاستراحة النفوس وصلينا المغرب / 247 في منظر من الأزهار مغرب.

---

(123) الخروبة: مكان ببرقة جنوبي مدينة بني غازي بنحو 109 ك.م. وذكر العياشي أنه جنوب الجيل الأخضر.

وجدَّ العلاَّم عن إذن **أمير الركب** حتى غاب الشفق، ومارقَّ لأحد من المساكين ولا أشفق! **ولم ينزل آخر الركب حتى انقضى أزيد من ثلث الليل وقاسى الناس من الشدايد ما ختم لهم بالسيل**[124]، **وبتنا أمام (قصر الطليون)**[125] حتى طلع الفجر، وفجرت السماء عيونها غاية الفجر، ولم يكف ذلك السيل طوال الليل وكأن الصواب أن نقيم حذراً من الوقوع في المقعد المقيم، فلم يساعد **الشيخ على الإقامة** وأمر بالرحيل من تلك المقامة، فكف المطر ريثما قضينامن الحمل الوطر[126].

وأخذ الركب يسير وتوجه الناس عقبه للمسير، وأرسل الله علينا سحابة وكْفاء، ليس لها كفاء، صيرت الأرض كالبحر الزاخر، لا يقر عليها خف ولا حافر وأعجزت عن السير وأوجبت النزول طوعاً أو كرهاً في ذلك الدير، فنزلنا بعد أميال قليلة **بحكم الملك** القادر، ولم تساعد الأمير، فيما رامه من المسير المقادر، وتفرق الناس يرتادون لنزولهم الموضع الحرشا، التي لا يخاف نازلها من كثرة الأمطار ولا يخشى. وألفينا بهذه الدار من **الآبار والمآجل والغدران** ما أزال عن القلوب الأدران، وكلها مملوءة بمياه الأمطار، وكفت السحاب عن الوكوف لتمام الأوطار وظلنا هنالك نتنعم في المطاعم والمشارب، ونقضي من الراحة أقصى المآرب.

وارتحلنا يوم الخميس (سادس شعبان) فريضنا بقرب قصر عليان وبتنا على غير ماء في المواضع المعروف بالبيضان.

---

(124) تلاحظ صرامة شيخ الركب السيد الخياط عديل (الذي لم يتنازل ابن الطيب لذكر اسمه!) في ضبط مسيرة القافلة دون اعتبار لرغبة البعض دون البعض، والسفر يحتاج لهذا. ومعلوم أن مهمة شيخ الركب توالت في أسرة عُدَيل، وفي طريق الحجاز توفي الشيخ عبد القادر عديل عام 1141.

(125) قصر الطليون لم نقف على تحديده في مدونة الأسماء الجغرافية وهو واحد من عشرات الأسماء والمواقع التي ما تزال بحاجة إلى أن يقول زملاؤنا الجغرافيون الليبيون قولهم فيها.

(126) لا ننسىٰ أن الرحالة يتحدث عن هذه التنقلات التي تمت في أوائل شعبان 1140 التي كانت توافق أوائل مارس 1728 وهي فترة معروفة بالأمطار والسيول...

ويبدو أن رغبة بعض القافلة كانت تخالف رغبة شيخ الركب عديل الذي كان حازماً في قراراته.

وارتحلنا يوم الجمعة، فصلينا الظهر **بالأجدابية**[127] واستقينا من جوابيها الجابية، وسرنا منها بعد صلاة العصر وبتنا بعد مجاوزة الجديدة بِلا أصر.

وارتحلنا يوم السبت، فريضنا بالموضوع المعروف بالعرف راضة مديدة، ونزلنا بعد العشاء على غير ماء بقصر وفيدة، ولم ينزل آخر الركب حتى مضى ثلث الليل.

وارتحلنا يوم الأحد، فظلنا سائرين حتى اصفرت الشمس ونزلنا **معطن المنعم** أو المنعل، ولم يصله آخر الركب حتى غاب الشفق وبات الناس يسقون القِرَب، ويبادرون القُرَب ومنه فارقنا جماعةٌ من أهل فزان[128]. جاؤوا معنا من مصر قاصدين بلادهم فزان، ومن المنعم بتنا بمقطع **الكبريت على غير ماء**، ومنه بتنا بقرب الحدادية وهي بئر معروفة / 248 استقى منها بعض من تيسر له مناولة الماء منها.

وارتحلنا يوم الأربعاء، فطرق بعض الناس بئر الحدادية أيضاً، واستقى منها لاحتياجه إلى الماء، ومررنا قرب الظُّهر بالكحيلة، وانحَرفنا لغُدرانٍ ذكر لنا فيها ماء المطر، فلم نلق بها إلا الأثر، وعوضنا الله منها ما لا يكيف من الربيع والزهر، وبتنا **باليهودية** على غير ماء، واليهودية بئر في هذا الموضع، وذكر أبو سالم أنها قرى متعددة متقاربة فيها آثاره بناء خالٍ متراكم يدل على أنها كانت عمارةً عظيمة، واشتهر على ألسنة الحجاج أنها كانت مدينة **ملكتها يهودية**، فسميت بها، ويحتمل أن تكون هذه هي المشار إليها في (الرسالة القُشيرية) إذ لا مدينة في الغرب تعرف باليهودية غيرها[129].

---

(127) الأجذابية سبق الكلام عنها مفصلاً والرحلة في طريقه إلى المشرق.

(128) لقطة هامة تعبر عن التعاون الذي كان بين الأركاب المغاربية، حيث نجد فزان يرافق الركب المغربي من مصر إلى موقع المنعم الذي سبق أن عرفنا به.

(129) يذكر الزاوي في معجمه أنه يقال أيضاً اليهوديات بالجمع، وهي موقع في أراضي سرت على شاطئ البحر تقع شرقي بلدة سرت بنحو 103 ك.م.

قال: وقد درست الآثار التي أشار إليها العياشي، ولم يبق فيها إلا بعض جدران الأبنية على ساحل البحر، وبها مرسى صغير.

وتعليقاً على ما جاء في الرحلة عن الرسالة القشرية قال، الزاوي: والذي وجدته في الرسالة=

وارتحلنا يوم الخميس، فبتنا بالخيرية قرب معطن بو سعده.

وارتحلنا يوم الجمعة، فمررنا به صباحاً وريضنا بمعطن الأحمر[130]، **وهناك ألفينا الشطّاب**[131] ورد بمكاتب من الغرب، غير أنه **طال طوافه** وجولاته في الأرض **وخرج من فاس في المحرم**[132]، فلم يصل إلى **هذا الوقت!** ووصلنا معطن النُعيم[133] بعد الظهر. وتلقانا بقربه **طوائف من الأعراب يعرفون** بأعراب الزاوية، وفيهم **الفرجان** وغيرهم في عدد كثير، وأبّهَةٍ عظيمة، عليهم أثار الرفاهية التي ليست بواهية، وألفينا حول المعطن **عسكراً من أتراك طرابلس**[134]، ذكر لنا أنه خرج ليأخذ عوايد ووظائف **على أعراب تلك** النواحي، وطلبوا الإقامة من الحجاج ليتسوقوهم هنالك فساعفوهم على ذلك، وأصبحنا مقيمين يوم السبت، ووردت الأعراب بالغنم والسمن والتمر وغير ذلك. وكانت سوقاً عظيمة غير أن الأتراك أفسدوا أحوالها وأكثروا أهوالها لأنهم أرادوا أن **يقتلوا رجلاً من قرابة أمير طرابلس** كان توجه للحج مع الركب **الجزيري**[135] وتأخر في

= القشيرية (تأليفُ عبد الكريم القشيري النيسابوري يحكي عن أبي الحسين المصري أنه اتفق مع الشجري (صوفي من خراسان..) في السفر من طرابلس فسرياً أياماً فوافى اليهودية...

وفي أواخر 1964 أنشأت شركة إحدى البترول في اليهودية مركزاً لاستقبال زيت البترول من منابعه الموجودة في تلك المنطقة وتصديره إلى الخارج، وقد أطلق على هذه المنطقة (خليج سدرة).

(130) سلف التعريف بالأحمر: موقع بأرض سرت يظهر أنه موقع أمني هام.

(131) كلمة (الشطاب) عند دوزي DOZY تعني موزع البريد أو ما نسميه في المغرب (الرقاص) الذي يحمل الرسائل إلى أصحابها، ومن الطريف أن نسمع أن الحكومة المغربية كانت تتبع خطوات الركب عن طريق البريد المتبادل بين شيخ الركب وبين القادة المغاربة، وهذا مصطلح حضاري جديد.

(132) المحرم عام 1140... ظل في طريقه نحواً من ثمانية شهور!!

(133) النعيم سبق التعريف به كما سبق الحديث عن الفرجان ونعتِهم بالمرْجان...

(134) ليست هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي يقدم فيها معلومات عن عسكر الاتراك بالإقليم، بل وعما كان يراه تعسفاً من جانبهم في جانب سكان **المنطقة** جميعها، وهذه معلومات يحتاجها المؤرخ كثيراً في الحديث عن طرابلس ومعاناتها.

(135) هنا أيضاً نسجل لقطة هامة من تاريخ علاقات الأركاب بعضها ببعض فبعد الحجاج الفزانيين الذين عادوا مع الركب المغربي نقرأ هنا عن الركب الجزائري الذي عاد بعض أفراده، وهو=

مصر لمقتضياتٍ وأغراضٍ عرضت له حتى غرب معنا، يقال له الحاج **محمد بوشاقور**، فطلبوا منه أن يتوجه لخيامهم ليكرموه، فكان إكرامهم له بالبندق والشاقور!! وجاء فاراً منهم بعد أن كان هيأ لهم من الأطعمة ما أبعده الله عنهم وأصابته رصاصة في **رجله وضربةٌ بالسيف** في يده وضَرَبَتْ فَرَسَهُ رصاصة، وما وصل إلى محله / 249 إلا بعد لأي ولأَي، فدخل إلى مكانه، وكساه الله حلة أمانه، وأنجاه الله من أعدائه، وسَلِم من فضل الله وبركة الرسول ﷺ، **وترك الترك ماراموه ونقضوا** من القتال ما أبرموه، ورجعوا إلى مواضعهم وعادت السوق كما كانت قبل تواضعهم.

وارتحلنا من (النعيم) **يوم الأحد وقد أخذ** حذره من الأعراب والأتراك كلُّ أحد، فبتنا بالمدينة، وتسمى الرّكَيزة، بالتصغير فيهما على غير ماء. وارتحلنا يوما الاثنين، فصلينا الظهر بعد مجاوزة **قصر الذبان**، وبتنا على غير ماء لما ظهر قطر السور وبان،وارتحلنا، فوصلنا بئر مطرد وعند ارتفاع النهار، فتفرق الناس يسقون من مائه الذي جارى بكثرة الأنهار، ومنه مررنا ببئر حسان وهو ما جل منقور في حجر يجتمع فيه الماء وبإزائه **قرى خالية** لم يبق إلا رسومها تسمى **قصور حسان** إضافةً إلى بانيها وكان عاملاً لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان بنى هناك قصوراً وأقام فيها نحواً من **ثلاث سنين**، ثم افتتحها بعد ذلك، حسبما نبه عيه مؤرخو إفريقية، وسُمِي هذا المكان باسمه إلى الآن[136]. ومن حسان أول سرت كما مرّ، وهي من أخصب البلدانِ وأحسنها والرفاهية ظاهرة على أهلها، وبتنا في **قرار شرف حسان** ويقال له قرار الزيتة على غير ماء.

وارتحلنا منه فصلينا العصر **بالمخاضة** وهي ساقية من الماء الملح مختلطة بحجر الملح في وسط سبخة عظيمة كما تقدم. **ومنها انحرف** الركب لسقي البهائم من **الهيشة**، وبتنا قباتلة الهيشة على غير ماء، وظعنا فمررنا صباحاً

= الحاج محمد بو شاقور مع الركب المغربي، ونلاحظ إلى جانب كل هذا أن نفس صاحب الرحلة مع زميله الجزائري ضد التعسف في المنطقة.

(136) يراجع ما قدمناه عن قصور حسان...

بالدارية ووسط النهار بالصنعة، ثم بالمجارين وأشرفنا على معطن السميذة، وبتنا قريباً منه، على غير ماء، وأصاب الناس ظماء سقاهم الله من ماء السماء وأرسل سحابة عمت الأمطار ووفت بالأوطار، فتلقينا ماءها في ما حضر من الأواني وكفانا ذلك الطعام والشراب فكانت لدينا كالشواني[137]، وحمدنا الله الذي ينزل الغيث من بعد القنط ويعجل الفرج على من قنط.

وارتحلنا صباح الجمعة، فوصلنا السميذة مع طلوع النهار وسقينا من أحسائها الفائضة فيضان الأنهار، وجلسنا ريثما، قضينا من السقي الأوطار، وفرغنا من الإفطار، وسرنا / 250 فريضنا بمعطن **العريعر** وصلينا به الظهر، ثم سرنا في سباخ متتابعة حتى وصلنا روضة الشيخ **بوشعيفة**، وبتنا في كفالته وروضته المباركة مسامتة للركب من قبالته، وسقى الناس دوابهم من سوانيه، واستقى كل واحد في أوانيه، وأصبحنا بروضة سيدي **بوشعيفة** نؤم دياره، ونخلص له الزيارة، ونسأل الله تعالى من كل شيء في الدينا و الآخرة خياره، ووصلنا ضحى لضريح الإمام المشهور مولانا **أحمد زروق أعاد الله** علينا وعلى المسلمين من بركاته، وتفرق **الناس في أفنيته** ومسجده وأمامه وخلفه يبتهلون إلى الله تعالى ويسألونه بجاهه ويطلب كل واحد ما شاء قرب تجاهه، وبقينا به ريثما فزنا بالزيارة في تلك المزارة، وسرْنا حتى توسطنا **مسراته**، وريضنا بين أشجار عظيمة من نخيل وزيتون وغير ذلك حتى صلينا الظهرين، وزال عن القلوب كل دين، وسرنا فبتنا في أول الدفنية[138] ووردت علينا جماعات من الأعراب يتسوقون الركب بغنم وسمن وشعير وغير ذلك.

وارتحلنا صباح الأحد فوصلنا **الفواتير** ضحى،وريضنا تحت أشجارها وأبنيتها ونخيلها الباسقة بين سوانيها الكثيرة المتناسقة، ومنها مررنا **بزليتن** وزرنا به ضريح الإمام المشهور بين تلك الأقطار في ضل الأوطار الشيخ سيدي عبد السلام الزليتني المشهور بالأسمر **الفيتوري** وله مقام عظيم وشهرته كافية. وقد ألف في مناقبه الشيخ **علي بن عبد الصادق أحد** أصحابه الملازمين له **تأليفاً حافلاً**

---

(137) الشواني: لفظ أجنبي الأصل، يعني المراكب البحرية فكأنهم زودوا بما تزود به السفن.

(138) الدفنية: الأرض المنحصرة في المسافة بين زليتن ومصراته.

سماه مِنح العليم في مناقب سيدي **عبد السلام بن سليم**، وطرقنا وادي الحمى وسماه لنا بعض عرب البلاد وادي **اغووا**[139]، فصلينا به الظهرين، واستقى منه من احتاج إلى الماء. ثم دخلنا ساحل **حامد** فزرنا في أوائله روضة الشيخ أبي بكر **الفرداوي الزياني وتجاوزناه وبتنا وسط نخيل** وأبنية هناك.

وظعنا يوم الاثنين، فمررنا صباحاً بروضة الشيخ **علي الفرجاني**، ثم بضريح الشيخ **عمر الشارف** أحد أصحاب الشيخ عبد السلام المتقدم الذكر رضي الله عن جميع أوليائهِ فزرناهما وتبركنا بهما وريّضنا عند سيدي بوعصيدة رضي الله عنه، لقب بذلك لأن عادته أن يصنع / 251 للحجاج قِصع العصيدةِ كلما مروا به ذهاباً وإياباً حتى ينالوا منها بأجمعهم وذلك دابه منذ أعوام متطاولة، واسمه سيدي أحمد بن جحالة، روضة **عظيمة ومشهد حافل** جداً على شاطى البحر، عليها أثار النور والبركة، وورثه أولاده فما زالوا على الوثيرة. وقد **ألفيناهم ضربوا خيمتهم** وشرعوا في ذلك فتبركنا بطلب الدعاء وتوضأنا هنالك، وسقينا البهائم وسمى لنا بعض الأعراب تلك الأرض بابن جحا ومنه انحدرنا في وادي القلعي.

ووصلنا روضة الشيخ محمد **القلعي** الشريف ظهراً فنزلنا أمامه للاستراحة والصلاة وأخذ الناس يستقون من بئر أمامه، ويسقون الدواب، وبقينا هنالك ريثما قضينا من الزيارة الآراب، **وصلينا العصر** في تلك الهضاب، وانحدرنا من تلك العقاب المتطاولة الصعاب المشهور ذلك كله **بالنفازة** عند الحجاج وغيرهم من الأعراب ولما سهلت الأرض ووطئت نزلنا فبتنا في حفظ رب الأرباب.

وارتحلنا يوم الثلاثاء، ففرغنا من النفازة وأوديتها وريضنا هنيئة بوطية قماطة[140] ثم بواد يسمى **ميته الخيار**، وعن يسار المغرب رأس جبل عال يسمى

---

(139) عبثا كان استنجادي بزملائي حول تحديد الموقع، وقد تساءلت هل إذا ما كان تحريفاً عن وادي الأغزار المذكور في معجم الشيخ الزاوي لكن المواصفات لم تساعد.

(140) قُماطة: بضم القاف، أرض بين مسلاته والخمس يسكنها قوم من العرب، لهم شهرة كبيرة في جهاد الطرابلسي ويوجد في أرض قماطة مكان له شقران، سمى باسم جماعة من العرب تسمى بني شقران...

رأس خيار، وألفينا تلك الأرضين كلها منعمة بالربيع والأزهار، ومررنا بوادي التوته قبل الظهر واستقى الناس من بئرها العذب ثم مررنا بالسُبالة[141]، ووصلنا وادي **المسيد**[142] فسقينا به الدواب، وصلينا الظهر لما في تقديمها من الصواب، وبقينا نتنعم في خصبه الكثير ومائه الغزير حتى صلينا العصر، وحثثنا المسير، فبتنا **بوادي الرمل**. وظعنا منه صباح الأربعاء فمررنا بروضة سيدي على النفاتي، ووصلنا تاجورا ضحى، وزرنا بها روضة سيدي **أبي النور**، وروضة سيدي عبد الله قادر، وغير ذلك من المشاهد المزارة نفعنا الله بذلك، وريضنا بالنخيل المتصل بالأبنية المتصلة **بالمنشية** حتى صلينا الظهر، وتوجهنا **لدخول طرابلس** فتلقانا الأخ في الله ومحبه الشيخ سيدي أحمد بن صالح وسط القُرَى التي هنالك بقرب ضريح سيدي محمد بن سعيد وزرنا المشاهد هنالك.

وسرنا حتى انتهينا إلى **المنشية** وهي مدينة قبالة طرابلس ينزل الحاج في ديارها لسعتها وكثرة المساكن بها. فلذلك يؤثرونها على الدخول لطرابلس. / 252

اتخذنا في المنشية داراً بقرب مسجدها الجامع رغبةً في جواره لتحصيل **الجماعة فيه كلّ** وقت، وبقينا مدة إقامتنا بطرابلس نحواً من **سبعة عشر يوماً أو أكثر** ونحن نتردد لمن أمكنت زيارته من صالحيها ومشاهدها، ولقينا بها جماعات من الناس غير الذين لقيناهم في الذهاب أولاً، وأجلُّ من لقيناه في الإياب الرجل الصالح العالم الزاهد المتبرك به أبو عبد الله **سيدي محمد المعزوي** أدام الله رعايته وأحسن فيه سعايته بمنه، لقيته **بداره من المنشية** مع محبنا الفقيه أبي العباس **أحمد الغزي**، وصلينا معه العصر في مسجده الذي يقرب داره، وحدثنا **بفوائد علمية**، وله يد في العلوم ولا سيما التصوف فإنه كرع

(141) السبالة: يعني سبالة الخدم التي تقع على مقربة من طرابلس. انظر معجم البلدان الليبية. ص 181.

(142) سلف التعريف به عند الذهاب.

فيه من بحر شيخه الإمام المشهور سيدي **محمد بن سعيد**[143] رضي الله عنه، وحالته متقشفة وله أخلاقٌ جميلة واسعة وظن حسن في جميع العباد، ومنشأ ذلك صفاء الباطن ونورانيته وحسن النية وخلوصها جزاه الله عنا وعن المسلمين خيراً، وتبركنا أيضاً بملاقاة الرجل الصالح المسن الخير البركة الفقيه المشارك الدراك أبي عبد الله محمد بن مساهل الطرابلسي بداره ومسجده، وصلينا معه الظهر، وتناولنا معه **مسائل حديثية** وله أخلاق حسنة سهلة واسعة ليّنة ورأينا غير هؤلاء ممن لقيناه أولاً.

وخرجنا من طرابلس يوم السبت[144]، فنزلنا بعد تمام النخيل والأبنية المتصلة بطرابلس بالموضوع المعد لنزول الأركاب المسمى **قرقارش**.

وارتحلنا منه صباح الأحد، فريضنا ضحى بنخيل زنزور، وريضنا في الظهر في نخيل جدايم[145]، وتحت ظلالها صلينا الظهر والعصر، وأسرعنا المسير فبتنا بالزاوية، وارتحلنايوم الاثنين فريضنا الراضة أولى ضحى بنخيل **زواغة**، وصلينا الظهر **بمليتية**، وبتنا **بالزوارات** الشرقية، وظعنا يوم الثلاثاء فريضنا ضحى بقرب الزوارات الغربية **للإفطار**، ووصلنا فنزلنا لنقضي من السقي والاستقاء الأوطار، وصلينا بها الظهر وأدركتنا صلاة العصر **ببرج الملح** فأديناها على شاطى البحر الملح وجلسنا أمامه نوحد الله ونتعجب فيما خصه به من تلك الأمواج...

---

(143) انظر (نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان) لأحمد النائب الأنصاري، تحقيق وتقديم على مصطفي المصراتي منشورات المكتب التجاري، بيروت 1993 ص130 ـ 131.

(144) كان الخروج من طرابلس وهو في طريق العودة يوم السبت 14 رمضان سنة 1140.

(145) جدايم: قرية من قرى الزاوية، شرقيها بنحو 7 ك.م. أرضها خصبة، ولذلك يقولون عنها جود دائم...